

مطبوعات مكتبة النهضة المصرية

عالم السيد ود القتيبي

عباس محمود البوطي

١٣٥٥ - ١٩٣٧

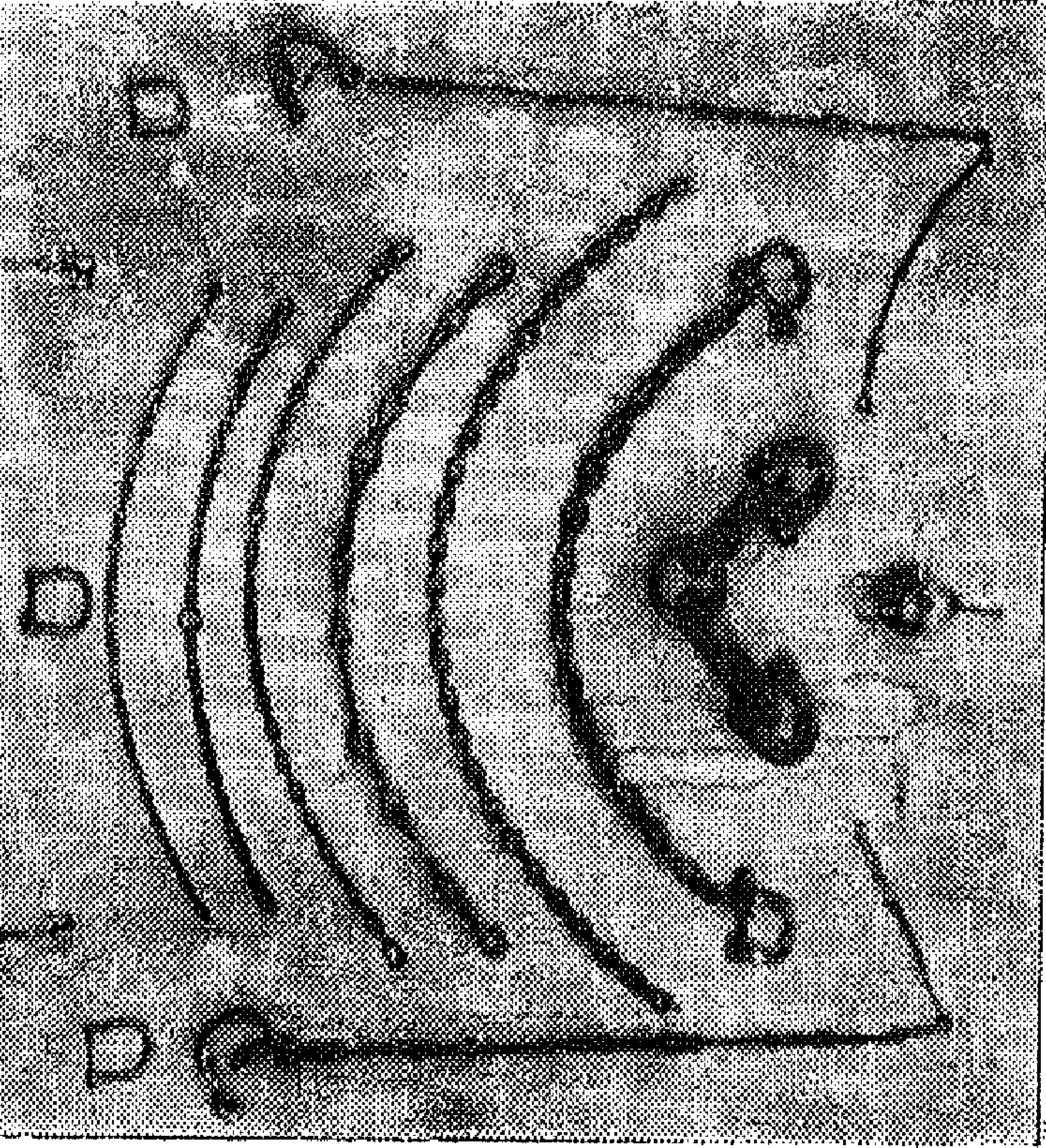
مطبعة حجازي بالقاهرة

تليفون ٥٥٤٨

طبع في نفقہ مکتبہ النهضة البعثة لأصحابنا حسین محمد و اخوتہ
۱۵ شارع المذاہق القاہرہ



عالم السدود



في القصور

كلمة تقديم

عالم السبود والقيود الآن — عندي وعند كل عابر بسيله
هو ذلك البناء المعزول في ناحية منزوية إلى طرف من
في بعض أحياء القاهرة الواسعة الكثيرة ، كأنه يحس
الناس منه ونفرتة من الناس ، واسمه في سجلات الحكومة
مصر العمومي ، واسمه الشائع على الألسنة « قره ميدان »
أما يوم كنت آوى إليه ولا أرى غيره ولا أسمع بالدنيا
من وراء جدرانها فلم يكن بناء معزولا ولا كانت الناحية التي
فيها ناحية منزوية إلى طرف من الأطراف ، ولكنه كان
العالم بأسره وبأرضه وسماؤه ، وكان العالم الخارجي جزءا لا
به مضافا إليه ، وتلك شيمة في النفس الانسانية أن تنقل
الكون كله إلى حيث تكون ، فالسجن وإن كان عند
منزلا بغضضا يصبحون ويمسون على أمل الخلاص منه و
الاستقرار فيه ، هو مع ذلك محور العالم ماداموا بين جدرانها ،
شط والدنيا كلها شط آخر يتقابلان ويتناظران ، فلو ظهرت
السجن صحيفة كبيرة لكان لاخباره فيها مكان « الحوادث

المحلية ، الظاهر في صدور الصحف السيارة ، ولكانت أخبار العالم فيه كـأخبار الحوادث الخارجية ورسائل الأقاليم ومنقولات البرق والبريد . . . وإذا ارتقى بعضها الى محل الرعاية والتنويه فانما يرتقى اليه بالاضافة الى سجين من السجناء أو حادث يدور حول عقره وحجراته وخبائاه

وهذه الصفحات هي خلاصة ما رأيته وأحسسته وفكرت فيه يوم كنت أنزل « عالم السدود والقيود » وأشعر به ذلك الشعور ، وانظر الى العالم من ورائه ذلك النظر : لست أعنى بها أن تكون قصة وان كانت تشبه القصة في سرد حوادث ووصف شخوص ، ولست أعنى بها أن تكون بحثاً في الإصلاح الاجتماعي وان جاءت فيها اشارات لما عرض لي من وجوه ذلك الإصلاح ، ولست أعنى بها أن تكون رحلة وان كانت كالرحلة في كل شيء إلا أنها مشاهدات في مكان واحد ، ولأن استقصى كل ما رأيته وأحسسته وان كنت أقول بعد هذا ان الاستقصاء لا يزيد القارى شعوراً بما هناك ، وأنه لا فرق بينه وبين الخلاصة إلا في التفصيل والتكرير ، وانما دعوى هذه الصفحات — بل خير دعواها — أنها تكفل للقارى بأن يستعرض عالم السجن كما

استعرضته دون أن يقيم هناك تسعة شهور كما أقمت فيه (١) ؛
فإن كانت الصفحات التالية عند دعواها فذاك وحده هو
حقها من القراءة وشفاعتها عند القراء ، وهي اذن قد
اختصرت تسعة شهور طوالا في مدى ساعات معدودات
يطويها القارىء بين دفتي هذا الكتاب الصغير وهو يتفكه
ولا يضيق ذرعا بالسدود والقيود ، وحسبها ذلك من نجاح
عباسي محمد العقاد

(١) كانت مدة السجن من ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٠ الى ٨ يولي



المؤلف بين المحكمة والسجن

الى قره ميدان

فتحت البكوة الصغيرة ، ثم فتح باب الرتاج الكبير ، ثم
احتوانا البناء المخفور الذى يعرف فى مصلحة السجون باسم
« سجن مصر العمومى » ويعرف على ألسنة الناس باسم « قره
ميدان » أى الميدان الأسود باللغة التركية .

وخطر لى - وأنا أخطو الخطوة الأولى فى أرض السجن -
قول الفيلسوف ابن سينا وهو يخطو مثل هذه الخطوة :
دخولى باليقين بلا امتراء وكل الشك فى أمر الخروج
فهو تقرير فلسفى صحيح للواقع . . .

أما الدخول فما هو ذا يقين لاشك فيه ، وأما الشك كل
الشك فهو فى أمر الخروج متى يكون وإلى أين يكون ؟ إلى رجعة
قرية من السجن وإلى ؟ أم إلى عالم الحياة مرة أخرى ؟ أم إلى
عالم الأموات ؟

فى تلك اللحظة عاهدت نفسى لئن خرجت إلى عالم الحياة
لتكونن زيارتى الأولى إلى عالم الأموات ، أو إلى ساحة الخلد
كما سميتها بعد ذلك - أى ضريح سعد زغلول

ولم تقع منى هذه الرحلة بين الدار والسجن موقع المفاجأة ،
لأننى كنت أنتظرها منذ زمن طويل ولوعلى سبيل الحجز الذى

ينتهى بفراج سريع ، ولكنى كنت لأرى فرقاً بين أيام أو أسابيع أقضيها على ذمة التحقيق وبين مدة أقضيها فى الحبس بحكم القضاء ، لأننى كنت أقدر أن حبس التحقيق - وإن قصر - كاف لأن يصيبنى بأكبر الضرر الذى يخشاه الناس من السجن ، وهو ضرر العلة التى لا تزول

وعلى توفى الاتهام والحبس كانت الأنباء تتوالى علىّ بما يؤكد ذلك التوقع من جهات عدة ، وسمعت النبا اليقين فى هذا الأمر من صديقنا المغفور له سينوت حنا بك ، وقد لقينى مرة فاستوقفنى وقال لى : « حذار يا أستاذ ! » فقلت له باسماء : « لا يغنى الحذر من القدر ! » قال لى : « إني أروى لك ما أعلم لا ما أظن : إن مقالاتك تراجع فى بعض الدوائر مراجعة خاصة ، وإنهم ينتظرون يوماً معيناً ربما كتبت فيه ما يساعد على تأييد التهمة ، ثم يقدمونك إلى المحاكمة بما استجمعوا من أدلة قديمة وحديثة ! »

وكان فى نيتى أن أسافر صيف سنة ١٩٣٠ إلى لندن مع وفد مجلس النواب لتمثيل مصر فى مؤتمر المجالس النيابية الذى عقد تلك السنة فى العاصمة الانجليزية ، وقد استخرجت جواز السفر السياسى ، واشتريت دليل لندن ودليل العواصم الأوروبية

التي كنت أنوى زيارتها ، ولم يبق إلا تذكرة السفر والاتفاق على الموعد واللحاق باخواننا الذين سبقونا إلى باريس ليشهدوا فيها الاحتفال بعيد الحرية ، ثم بدا لي أنني إذا سافرت فقد أمهد يدي وسيلة لنفي في أوروبا سنوات بلا عمل ولا قدرة على البقاء في ذلك الجو القارس أيام الشتاء ، وربما كان منع عودتي أسهل على الوزارة من محاكمة قد تنتهي بالبراءة أو بعقوبة لا ترضيها ... فعدلت عن السفر في اللحظة الأخيرة ، وقلت إن السجن أحب من النفي الذي لا عمل فيه ولا ضمان للصحة ولا الحياة !

وفي اليوم الثاني عشر من شهر أكتوبر دق الجرس أصيلا وأنا وحدي بالمنزل ، لأن أخي كان معتقلا في قضية « البلطة » المشهورة متهما بالتآمر على حياة رئيس الوزارة ، ولأن الخادم لم يعد من راحته الظهيرية وصلاته العصرية ، ففتحت الباب فإذا ضابط في رتبة « اليوزباشي » على ما أذكر يادرني بالسؤال :
— هل حضرتك فلان ؟

— قلت نعم

فمد إلى ورقة من دفتر في يده على هيئة ذكرتي الكونت نيمور وهو يلقي القفاز في محضر لويس الحادي عشر
قلت : « تفضل أولا فاجلس »

فتردد في الدخول ، ثم دخل وجلس ، فتناولت الورقة
وقرأت فيها دعوة من صاحب السعادة النائب العمومي للحضور
إلى مكتبه في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ، ووقعت على
الدفتري - كما طلب الضابط - بأني تسلمت الورقة . وأخذت في
إعداد الكتب التي سأقرأها في السجن ، والأدوية التي أتعاطاها ،
والملابس البيتية التي أحتاج إليها هناك . وزدت فأعددت الأغطية
الصوفية التي تلزمني للفراش والغطاء . لأتني كنت حتى تلك
الساعة أجهل « تقاليد السجون » وأظن أن الأغطية الخاصة
مسموح بها كالملابس الخاصة أثناء التحقيق وفي الفترة التي تسبق
المحاكمة . ثم حضر الطاهي فأريته هذه الأشياء كلها وقلت له : إنه
سيحضرها لي في السجن غداً عند اللزوم

فظهر لي أنه لم يفهم ... وأنه ينوي أن يقصد بها سجن
الاجانب الذي كان أخي معتقلاً فيه

فقلت له : « بل هي لي أنا في السجن الذي سيخبرونك عنه
غداً بدار النيابة ١١ » ووصفت له الدار واجتهدت أن أفهمه
جهد المستطاع ، وذلك جهد يعرف العارفون بالشيخ « أحمد »
أنه ليس باليسير !

وذهبت في الموعد المحدود الى دار النيابة . واستغرق

التحقيق ساعات . ثم قال لى حضرة المحقق : « إتنى آسف لآتنا سنضطر الى ابقائك عندنا قليلا يا استاذ ! » وبدأ حضرات المحامين يوجهون نظر رجال النيابة الحاضرين إلى « الحيفة الصحية » الواجبة فى هذه الحالة ، ومنها اختيار السجن الذى يوافقنى أثناء الحبس « الاحتياطى » أكثر من سواه

وكان الاساتذة المحامون لحسن الحظ من الخبيرين بمزايا سجون القاهرة التى تردد عليها فى سنوات الثورة السياسية معظم المشتغلين بالقانون والسياسة ، فأضافوا خبرتهم بالسجن إلى خبرتهم بالمحكمة وقدرتهم على النصيح السيد للتهمةين والموكلين ... واستحسنوا أن يكون الحبس فى « سجن مصر » لأن الجو فيه أوفق لى من سجن الاستئناف

وقد كان

فذهبت مع الضابط والجند فى سيارة خاصة الى « قره ميدان » وتخطيت الباب فاذا هدوء غير مألوف لأن الوقت كان وقت الراحة عقب الغداء . وتوجه بى الضابط نحو حجرة الكتاب لتسلم ما عندى من الودائع وكتابة الأوراق التى لا بد منها لكل مسجون جديد . وما هى إلا لحظة حتى توافد الموظفون وكثردخول السجنائين ينظرون الى القادم الذى سرى

بينهم نبأ قدومه . وأخذ كاتب هناك مرح ثرثرة يداعبهم واحداً بعد واحد كلما مروا به وتضمنوا سؤاله عما يضمره لهم يريد اليوم . فيقول لأحدهم : « اطمئن ... فقد عينوك مديراً لمصلحة السجون ؛ .. » ثم يحجج بيصره كمن يستغرب سكوته . ويقول له : « الا تصدق ؟ آه يا ابن الحلال . معذور . فانك في السجن ولست في بیمارستان .. »

أو يقول لغيره : « تعال هنا ... قرب اذنك ١١ قرب أيضاً » ... ثم يناديه بصوت يسمعه كل من في المكان : « افرح ... نقلوك الى أسوان . لا تقل لأحد يا ولد ! »

وهكذا في أثناء التسليم والتدوين . فاستعدت في ذهني موقف هملت وحفارى القبور ... اذ يغنون وهم في ذمار الموت ١١

الليلة الأولى في السجن

لم يكن مكتب الموظفين إلا بمثابة « الأعراف » التي تفصل بين نعيم الحرية و جحيم الاعتقال . ولكنها « أعراف » تنقل من النعيم إلى الجحيم كما تنقل من الجحيم إلى النعيم . وقد كانت في اليوم الذي سجلت فيه اسمي بين الداخلين تسجل أسماء شتى للخروج أو للإفراج كما يسمونه في لغة السجون !

وعبرنا مكتب الموظفين ومكتب المأمور مع ضابط العنبر في هذه المرة لا مع ضابط الشرطة الذي انتهى مقامه عند الباب فاتجه الضابط إلى عنبر « ب » وفتح الباب الحديدى ودخلنا العنبر فكان أول ما صادفنا فيه منظرأ عجيباً لا تألفه العين : أناساً بملابسهم العادية جالسين القرفصاء في صمت لا يلتفت أحدهم يمنة ولا يسرة . ومن ورائهم نفر مكبون على الأرجل ، والأيدى كما تمشى الدواب يزحفون زحفاً ويتغنى أحدهم بصوت خفيض والباقون يحبون بصدى — لا بكلام — يقولون فيه : « هيه هيه » أما المعنى فالذى أذكره من أنشودته الآن عبارة واحدة : « رايحه له فين ! ده عليه سنتين ! »

فقلت فال جميل وايم والله ! والفعال شأن كبير في « نفسيات »

المنسجون كما سيري القراء في بعض هذه الذكريات

وكان لا بد لي من « فرجيل » يصاحبني كما صاحب الشا
الايطالي « داتى » في طبقات الجحيم ليده على أنواع العذا
ودرجات المعذنين ... فمن هؤلاء الجالسون القرفضاء؟ ومن هو
المكبون على أربع؟ أهذا ضرب من العقاب في مكان العقوباد
وما بال أناس منهم يلبسون ثيابهم العادية على اختلافهم
المعم والمطر بش ولا بس « الطاقية » ... ولا يلبسون كأ
السجون؟

على أتى لم ألبث طويلا حتى عثرت على الدليل الـ
يتوب في نجيمنا عن فرجيل :

فقد كان على يسار الحجرة التي خصصت لي حجرة للصـ
الظريف على أفندي شاهين رحمه الله . وكان محبوساً رهن المحاكم
قضية مقالات ورسوم قذف بها بعض الوزراء وعلى رأسهم اسماء
صدقي باشا كبير الوزراء في تلك الأيام . وكان واقفاً عند باب
حجرته ينتظرني بعد أن سبقت البشائر إلى العنبر بقدومي
فلقيني مرحباً . وعلى مقربة منه اثنان أو ثلاثة من أهل بولا

« دائرتى الانتخابية » كانوا فى مؤخرة صفوف الجالسين القرفصاء ، فنهضوا يحيوتنى ويهمون بالصياح لولا أن شاهدوا الضباط والسجانين فعادوا جالسين

وعلمت بعد ذلك بهنية أن هؤلاء الجالسين القرفصاء هم المحبسون على ذمة التحقيق من آثروا البقاء بملابسهم العادية . وإنهم جلسوا تلك الساعة فى انتظار الخروج « للطابور » الذى هو موعد الرياضة المصطلح عليه مساء كل يوم . وللمحبوسين شوق إلى مواعده يفرحون به أشد من فرح الطلقاء بنزهة الأصيل على شاطئ النيل وطريق الأهرام !

أما المكبون على أربع فهم أصحاب النوبة المنوط بهم تنظيف بلاط العنبر وتلميعه . وهم يتغيرون كل شهر مرة ويقومون بهذا العمل طول النهار ، ويؤثرونه على أعمال السجن الأخرى لأنهم ينطلقون فيه على مدى واسع بعض السعة ، ولا يحبسون فى الحجرات

قال دليلى أو « فرجىلى » بعد الشرح المتقدم : « وإن هؤلاء المساكين يعانون هذا العناء من أثر دعوة النبى يوسف عليه السلام »

قلت : « وما ذاك أفادك الله ! »

قال : « لقد دعا يوسف ربه في السجن أن يغزر ترابه ويحلى طعامه ويقصر أيامه » فالتراب لا ينقطع لحظة عن أمثال هذا المكان

قلت : « ينخيل إلى أن يوسف عليه السلام قال اللهم غزر رغامه ولم يقل غزر ترابه .. لأن السجعة تقضى بذلك »
وما لبثت في السجن نصف ساعة حتى رأيت بعيني حرص الاقدار على إجابة ذلك الدعاء ، فما هو إلا أن يزحف الماسحون من طرف العنبر إلى طرفه حتى يكون التراب قد سفا على المكان الذي تركوه

وإلى هنا لم أكن قد تناولت طعام الغداء مع اهتمامي برعاية المواعيد في تناول الوجبات

فأين الطعام ؟ هل أحضره الطاهي أو نسي إحضاره وفهم غير ماتعبت بالأمس في إفهامه إياه ؟

هنا ظهرت لي قيود السجن دفعة واحدة ، فليس من المستطاع أن أعرف هذا الخبر الصغير إلا بعد أن أسأل السجنان ، وبعد أن يسأل السجنان الضابط ، وبعد أن يسأل الضابط البواب ،

وبعد أن يحيل البواب إلى المأمور وأطباء المستشفى ، وبعد أن ينقضى في ذلك كله وقت غير قصير

ولم يكن الذنب في هذه المرة على ذكاء « الشيخ احمد » كما توهمت لأول وهلة ، فانه قد أحضر الطعام بعد انصرافى من دار النيابة . ولكنهم حجزوه على الباب حتى يتلقوا أمراً بقبوله وانتظام حضوره ، وحتى يراه الطبيب ويرى الأدوية التى معه ، وحتى يتم الفحص عن حالتى الصحية وما يصلح لى من الدواء ، ثم قبلوا الطعام والدواء وردوا الغطاء والفراش ، لأن السجن كما قالوا فيه الكفاية من غطاء وفراش !

وفي هذه الاثناء بدأت أشعر بقشعريرة الرطوبة التى ينضح بها الاسفلت فى أرض العنبر وسقفه ، ثم فرغ السجنان وصاحب النوبة الموكل بحجرتى من إعداد سريرها وأدواتها ولوازمها ، فألقيت نظرة على الغطاء الذى سيغنينى عن غطائى فلم أطمئن اليه كثيراً ، ولكنى قلت : لا بأس بالتجربة هذه الليلة . وبقيت متوجساً من هذه النافذة المفتوحة على رأسى يندفع منها الهواء طول ليل الخريف . . . فما العمل فيها ؟

قال دليلى أو « فرجىلى » على افندى شاهين : « لا عليك من هذه النافذة افسترى كيف نعالج خطبها » ، والتفت الى

صاحب النوبة فأوصاه أن يسدها بالحصيرة المفروشة على أرض
الحجرة كما يصنع في حجرته هو ، ففعل صاحب النوبة
توأ ليريني كيف يحكم هذه الصناعة ، وضحك شاهين افندى
ضحك العلم والمعرفة وهو يقول لى : « أحمد الله على أنهم لم
يختاروا لك سجن الاستئناف . فهناك النافذة أربعة أضعاف
النافذة هنا ولا أمل فى سدها بحال من الأحوال ، فضلا عن
الظلام المطبق من الصباح إلى المساء »

قلت : « الحمد لله ! »

وهبط ظلام الليل شيئاً فشيئاً ، وعاد المسجونون قبل ذلك
أفواجا إلى الحجرات ، وتعالى بينهم ضجة كضجة السوق فى
يوم زحام ، ثم توالى اغلاق الأبواب وإدارة المفاتيح فى الأقفال ،
ثم بدأ « التتميم » أو المراجعة حجرة حجرة :
كم يا ولد ؟ عشرة !

كم يا ولد ؟ أربعة . . . وهكذا إلى نهاية الدور ، وفى كل
عبر أربعة أدوار ، ولن يبرح السجنان دوره حتى يستوثق من
مطابقة العدد الموجود للعدد المكتوب فى سجله المعلق عند الباب
وازدادت الضجة بعد انتهاء المراجعة فلم يكن للسامع أن
يسمع إلا أسماء تتقاذف بها أفواه رجال ونساء ، وصرخات
وأهازيج وشتائم هى عندهم فى منزلة التحيات المباركات ! ثم

سكنت الضجة بعض الشيء وتبين من هنا وهناك نداء مفهوم ،
وشرع اثنان في قافية من القوافي المعروفة في محافل الأعراس
والموالد المصرية . وكأنهما علما بمقدم الصحن الطارىء على
السجن في تلك الليلة فجعلوا للصحافة قسما من هذه المساجلات
المحفوظة :

— الأولاد تنادى وراك وتقول

— ايش معنى

— المؤيد ! المؤيد ... وهو يعنى « المقيد »

— فوق راسك يامعلم على

— ايش معنى

— المقطم !

وهذه حقيقة واقعة وليست بمجاز ! لأن بناء السجن واقع

في حوض جبل المقطم

— الرغيف فى سقف بيتكم

— ايش معنى

— كوكب !

— تطلع من هنا تقابلك في البيت

— ايش معنى

— الحماره !

وقس على ذلك مايقال ، وما يسمع كرهاً ولا يقال
أما أنا فقد أظلمت الحجرة عندى ظلامين ، لأن النافذة
المغلقة حجبت كل ضياء يتسلل إلى الحجرات من فناء السجن.
المنار بنوره الضئيل ، فلم أستطع أن أعرف مكان الكوب ولا
سلة الطعام في ذلك الظلام ، ولبثت أسمع الأصوات تنحفت
وتنحفت حتى انقطعت أو كادت في نحو الساعة التاسعة كما أنبأتني
الساعة العريية التي تدق في مسجد القلعة ، ولم يبق من مسموع
إلا وقع أقدام الحراس على البلاط ، وإلا صيحاتهم كل نصف
ساعة يطيلونها ويتنافسون في إطالتها . فذكرتني مبيت ليلة على
حدود الصحراء ، أسمع فيها صياح الذئاب

التهمريب

تقدمت في علم السجن بعد يوم واحد خطوات سريعة ، وعلمت
مركز الدور الذي أنا فيه — وهو الدور الخامس — بين أدوار
السجن عامة ، وعلمت ماله من الشرف والوجاهة المومومة في تلك
المدينة الصغيرة التي يسكنها نحو أربعة آلاف ، فانه هو محور حركة
التهرب والحيل والمناورات

وليس التهرب في السجن بالشئ الهين ولا بالمطلب
اليسير ، لانه هو الدفاع الوحيد الذي ينتقم به المسجونون من
الأسوار والقيود والحراس ، وهو فسحة الحرية الباقية لمن
فقدوا الحرية . فعليه وحده تنصب جميع الجهود والحيل
والخباثات . وله وحده تجارة واسعة النطاق تجرى على معاملات
خاصة ولغة خاصة ومواصلات خاصة ، لا يكفي للعلم بها يوم
واحد . ولكن لا يمضى يوم واحد على السجين حتى يأخذ في
العلم ببعضها ، ثم لا يزال في الافتتان والمزيد ماشاء الله أن يهبه
من سعة الفهم والنبوغ

والتبغ والحلوى هما عماد المهربات جميعاً في السجن ، وهما
السلعة التي يغالى بأثمانها من يطلبونها هناك حتى يبلغ ثمن اللبيفة
الواحدة خمسة قروش . وثمان عود الثقاب قرشا أو أكثر ،
وثمان القطعة « من الحلاوة الطحينية » كثمان اللبيفة من التبغ ،
وربما زاد عليها في بعض الأحيان .

ولكل سلعة من السلع المهربة ، بل لكل شئ من الأشياء التي يتصل بها السجناء رمز من الرموز ، يعرفه كل من في السجن ولكنهم لا يزالون مصطلحين عليه بعد انكشاف سره واقتضاح صفره . فالحارس يعلم أن « الزمارة » هي اللقيفة وأن « العين » هي النار من ثقاب أو غير ثقاب ، وأن « العربية » هي الحارس نفسه . وأن السجن الذي يقول لزميله : « حاسب العربية فاية » انما يعنى أن الحارس في الطريق . . . ولكن السجناء مع هذا قد ألفوا الكناية والتخفي والزوغان فبنسوا الكلمات الواضحة وصمدوا على هذه المصطلحات والرموز والدور الخامس فيه سجناء المحاكم المختلطة أو « الحمايات » كما يسمونهم هناك . وهم يميزون بطعام غير طعام السجن يشتمل على الخضر واللحم والفاكهة والحلوى كل يوم ، ولهم في الافطار كوب كبير من الشاي وبيضتان . وفي المساء جبن أو ماشابه من طعام محرم على سائر المسجونين

وفي الدور الخامس قسم آخر من سكان السجن المجدودين في نظر الزملاء الآخرين ، وهو قسم المحبوسين على ذمة التحقيق الذين يسمح لهم « النظام » بالطعام واللباس من المنازل ، فيصل اليهم كل يوم دجاج ولحوم وخضر مطبوخة وفاكهة وحلوى

وألوان من « الثمرات » المحرمة المشتهة في ذلك الجحيم
وهؤلاء يشتاقون « التبغ » إن كانوا من المدخنين فيجدون
في « العنبر » من يشتاقون الحلوى واللحوم ويملكون اللقائف
أو « الزمامير » للبيع والمقايضة ، فتعقد الصفقات وتظهر
البراعة والافتنان في التوصيل والتسليم
على أن البيع لا يجري كله بالمقايضة ولا غنى فيه عن
« النقد » في كثير من الأحيان ، أما حمل النقد فممنوع في نظام
السجن ولكن هل يمنع بلع النقد واحتواؤه في الأجواف ؟
هيات ! ومن هنا كانت العملة المختارة في السجن هي قطعة
القرشين الفضية وقطعة « نصف الجنيه » الذهبية ، وما عدا
ذلك من القطع فهو شذوذ يتوقف عليه شذوذ المعدات والأعمال ،
ومنها ما تصل طاقته في الشذوذ إلى ربع ريال ، وقد تزيد على
ما يقال !

ولم تمض على ليلة في السجن حتى عرف الخبثاء المتربصون
أن هناك فرصة للاستغلال لا ينبغي أن تضيع ، فاستغلوا جهلى
بكل ما استطاعوا من وسيلة وحيلة ، وكانوا موفقين كل التوفيق
جاءني خادم الحجرة في الصباح الأول بعد الإفطار وأنا
لا أعلم بطبيعة الحال شيئاً عن المحظورات والمباحات وأولها

إعطاء الطعام والفاكهة لخدام الحجرات ، فأعطيته كل ما بقى من الموز والفاكهة فى السلة ، ففرح بها وتهلل وجهه وأسرع نخباً بعضها تحت لبدته ولف بعضها فى سرواله ، وتسلسل من الحجرة إلى حيث لا أعلم . فأدهشنى أنه لم يأكل ما أعطيت وظننت أنه يخفيه عن أصحابه حتى ينفرد بأكله فى ناحية ، ولكنى عرفت بعد ذلك أنه باع معظمه بزمارة ١١٠٠٠ وقنع منه بأكل القليل وجاءنى بعد ذلك فسألنى :

— هل تعبت كثيراً من البق والبراغيث ؟
قلت :

— كلا ! لم أشعر لها بوجود
قال :

— لكن هذه « الملاعين » ستظهر قريباً عند ما تشم
« نفس الناس » وتزعجك كثيراً ومن العجيب أنها لم تظهر
أمس والحجرة مهجورة والأغطية مخزونة ، فلا بد من تطهير
السريـر وحدائد النافذة والباب للقضاء عليها . . .
وطفق الخبيث يهول لى فى فتك هذه الحشرات والأعـيـبـا
فى الاختفاء والظهور كأنها تحاور السجناء وتلاعبهم لعبـة
« الاستخفاء » عن عمد وتديـر

ونخشيت أن يكون ما قال حقاً ، لأن المزعجات كلها مسلطة
على السجناء في اليقظة والرقاد
فقلت :

— وكيف نقضى عليها ونستريح منها ؟

قال :

— بالنار . . اطلب سعادتك موقد الغاز من السجنان
وهو لا يضمن به على مثلك ، وقل له إنك تريد تطهير الحجرة
من البق والبراغيث

فشكرت له إخلاصه ، وانتظرت حتى جاءني السجنان فطلبت
منه « الموقد » وذكرت له الغرض منه ، فلم يضمن به كما قال
الرجل بيد أنى علمت بعند لحظات قليلة حقيقة ذلك
الإخلاص الذي شكرت صاحبنا عليه !

فما هو إلا أن تسلم الموقد مشعلا حتى أسرع قبل كل شيء
فأشعل منه لفة من خيوط الصوف ونظر إلى الدور الأعلى
— وهو الدور السادس — فاذا بلبدة تسقط على مقربة منه
كأنها سقطت عفواً بغير طلب ، وإذا به يدس فيها اللفة المشعلة
ويطويها طياً محكما ويقذف بها حيث سقطت ، وهو يقول في
صوت بين الهمس والنداء : « خذ التليفون ؟ »

والتليفون كما علمت بعد ذلك هو الخيط المهرب على هذا
المنوال لاشعال الزمامير !

قلت : « يا شيطان ؟ أهذا هو البق الذى تريد إحراقه »
فحاول أن يتماذى فى الكتمان والزوغان . ولكنه ضحك على
الرغم منه وأفصح لى بسر هذه « التهريية » التى كانوا لا يظفرون
بها إلا فى الفلتات . وقال لى إنهم كثيرا ما يشعلون خيط الصوف
على طريقة قدح الزناد ، ثم يقذفون به فى الحجرة المجاورة
فيتلقاه أحد السجناء على ذراعه الممدودة خارج « شعاع » الباب
ثم يلقى به الى جاره حتى يدور فى الدور كله . ولذلك سموا
هذا الخيط بالتليفون !

وماذا يصنع المدخن الذى يود التدخين لاحتالة ومعدته خاوية
من « ذات القرشين » أو من الزرار كما يسمون تلك القطعة فى
لغة الاصطلاح ؟

أترأه يقلع عن تلك العادة ؟ كلا ذلك آخر ما يفكر فيه ، بل
ذلك حديث لا يفكر فيه آخرأ ولا أولأ فيما يظهر . وإنما يعتمد
على الثقة ومعاملات القرض والتسليف حتى يفرجها الله
وأنها لمعاملات معترف بها تسرى بين السجناء سريانها بين

الطلاق . فكل سجين « حساب الجارى » الذى يليق بسمعته
المالية وكفائه « السجنية » . وهى على نقيض الكفاءة التى توجب
الثقة فى معاملات المصارف والمتاجر الخارجية . لأن أسوأ الناس
سلوكاً وأطولهم إقامة فى السجن هو أحقهم بزيادة الاعتماد وحسن
السمعة . وأما البرىء أو المحكوم عليه فى أمر يسير فذلك فى
حكم المفلس المعدم الذى لا يوثق به فى التسليف من هنا إلى هناك !
ولا أزال أذكر صرخة الفرع التى سمعتها من أحد تجار
التبغ المشهورين حين أبلغوه أن مدينه « فلاناً » قد برىء فى
محكمة الاستئناف بعد أن كان ميوساً من براءته وكان هو أول
اليائسين المتفائلين ببقائه فقد صاح التاجر فيمن أبلغوه
شامتين مستهزئين : « ويحكم ماذا تقولون ؟ هل برأوه التذل
الوضيغ ؟ » ثم عاد فاستسلم وأناب وقال لمن حوله وكأنته
يحدث نفسه : « ولكن الحق على أنا المغفل الذى أثق بمثل هذا
الكاركى الحقيقى ! » وكان الأولى به أن يقول : « هذا البرىء
الحقيقى » بدلاً من كلمة الكاركى التى هى عندهم اصطلاح على من
دخل السجن محكوماً عليه لأول مرة . ولعلهم أخذوها من كلمة
« الكاكي » الذى يشبه لونه لون الغلامه الموضوعة على لبدة
هذه الفئة من فئات المسجونين

وربما تبادر الى الذهن أن ديون السجين عرضة للغدر والاهتزام إذ كان صاحبها لا يجسر على المطالبة بها خشية العقاب. إذا هو أقر على نفسه بالتهريب والاتجار بالمحظورات ، ولكن الحقيقة أن ديون السجين كديون الشرف عند جماعة المقامرين هي أحق الديون بالضياع وهي مع ذلك أبعد الديون عن الضياع . ولا شك أن الدائن يستमित في رد حقه على قدر حاجته إلى الاستماتة والمجازفة . وهو يحتاج إلى الاستماتة والمجازفة كلما قل اعتماده على المطالبة المشروعة والأصول المتفق عليها . فيذهب في طلب الدين المهرب إلى أقصى حدود العنف والارهاب ويلقى في روع غريمه أن رد المال أهون من الأضابة التي لا مفر منها اذا هو تذرع بالغدر والمحال . وربما استنكر « الرأي العام » بين هؤلاء اللصوص أن يأكل المدين مال الدائن في غيابة السجون وهم جميعا لا يستنكرون الخطف والسطو والاختلاس في قضاء الله الرحيب . لأنهم يحتاجون في السجون الى تجارة المهربات ويعلمون انها تجارة قوامها الثقة والسداد ، وان كان هذا لا يمنعهم ان يعجبوا « بالشاطر » الناجح الذي يستدين ثم يتمكن من الزوغان ؛ ومن هؤلاء الأشقياء من يعجز عن معاملة التسليف فيهم على التزييف وهو يتوقع ما وراه من الخطر والعقوبة القاصمة

رأيت من هؤلاء اثنين جاء بهما أحد السجانين الى مكتب
السجان الأول في انتظار عرضها على حضرة المأمور . وكنت
أجلس أثناء الرياضة في فناء السجن بين المكتبين المتقابلين
فبسط لي السجان المصاحب لها يده وقال : « انظر ! هذا
من تزيف هؤلاء المجرمين » وعد أمامي ثمانى عشرة قطعة من
ذات القرشين صنعها ذاك السجينان في المعمل واتقنا صنعها
جد الاتقان . مع السرعة وقلة الأدوات وشدة الحذر من الرقباء ،
فلا تختلف القطعة الصحيحة إلا بالرنين وهو محك مأمون في
داخل السجون . . . ومن ذا الذى « ين » الزرار في لحظة
التهرب ؟ فالشياطين يعلمون أن صاحب البضاعة سرعان
ما يتناول القطعة بيده حتى يقذف بها إلى معدته . . . ثم يختلط
الصحيح بالزائف في ذلك الكيس الحى وتختفى الشبهة باختفاء
القطعة بين أحشاء التاجر المخدوع

قال أحدهما لصاحبه : « فيها خمس سنوات يا فلان »
فاضطرب صاحبه . وقال : « قسم ونصيب . . . وكل هذا
من أجل نفسين لا طلعا ولا نزلا »

ثم التفت نحوى كالمستغيث سائلا :
أصبح أن الحكاية فيها خمس سنوات ؟
قلت :

— لا أظن

فنظر إلى الأول نظرة يتنازعها ادعاء العلم بأحوال السجون
ولهفة الخلاص . وقال لي كأنه يتحدى ويستزيد من الاطمئنان
في وقت واحد :

— وكيف هذا وقت رأيت بعيني جماعة عوقبوا بالسجن
خمس سنوات لأنهم زيفوا النقود ؟

فطاب لي أن أداعب مهارة هذين الشيطانين وأخذت أشرح
لهما ما أعتقد من الفارق بين التزييف في الخارج والتزييف في
داخل السجن ، وقلت لهما إن المزيف في الخارج يختلس حق
الحكومة وحق الناس ، ولكن المزيف هنا يختلس ما هو
مختلس بطبيعته ومستحق للبصايرة عند ضبطه ، وليس على هذا
عقوبة أكثر من عشرين أو ثلاثين جلدة ، وأيام أو أسابيع من
سجن الانفراد والخبز القفار
قال :

— لتكن مائة جلدة ، وانطلق يدعولي بالطمأنينة وارتقاء
المراتب والصحة والعافية وكل شيء
قلت :

— هداك الله يا صاح . ولكن هذه الدعوات الصالحات
هل تراها « عملة صحيحة » عند صياقة السهام ؟

القراءة

يسمح النظام في « قره ميدان » بالقراءة للمحجوزين على
خدمة التحقيق والمحكوم عليهم بالحبس البسيط ، وتنحصر القراءة
المسموح بها في الكتب الدينية والعلمية والأدبية التي « لا تخل
بالنظام » ماعدا الروايات وكتب التسلية ، ويرجع الأمر في
التفريق بين ما هو جاز من المقروءات وما هو محظور - إلى رأى
الموظف « الكتانى » الذى يتفق وجوده ساعة وصول
الكتاب ، لأن الموظفين العسكريين يرفعون عن الخوض في
هذه المسائل « الملكية » ولا يشعرون بغضاضة على أنفسهم
من القائما على كاهل حملة الأقلام ، ولكن ما الحكم في اللغات
التي لا يعرفها الموظف الحاضر ؟ وما الحكم في الروايات التي هي
من صميم الأدب ؟ وما الحكم في الكتب التي لا يلوح عليها أنها
روايات إلا لمن قرأها وأحاط بتراجم أصحابها ؟ وما الحكم فيما
يخالف النظام من التصانيف اذا كان المراقب الفاضل لم يسمع
قط باسم كارل ماركس ولا كروبتكين ، ولا مانع عنده من
أجازة كل تأليف لاخوان هذا الطراز ؟

الحكم في ذلك كله للمصادقة والمزاج ، فكثيراً ما يتوغل في
السجن من أجل هذا كتاب يقشعر له بدن النظام الاجتماعى
وكل نظام في الوجود ، وكثيراً ما ينتظر الكتاب الاذن بعبور
الجدران أياماً وأسابيع حتى يرسل الى الادارة العامة ويعثر

هناك على من يعرف الألمانية أو الأوردية أو الأرمنية وماشابهما
إذا كان مكتوباً باحدى هذه اللغات

وقد وقع اختياري عند ما وصل إلى إعلان دعوة
التحقيق على كتابين في التاريخ والأدب ، وهما الطبعة الجديدة
من مختصر تاريخ العالم للمصلح الانجليزى « ه . ج . ولز » ، وسيرة
بيرون للكاتب الفرنسى « اندريه موروا » مترجمة الى الانجليزية ،
فأفردتهما جانباً ووضعت علامات على الكتب الأخرى التى
سأطلبها بعد الفراغ من هذين الكتابين

ولم يكن اختياراً فى الحقيقة ذلك الذى هدانى الى اختصاص
تاريخ العالم وسيرة بيرون بالقراءة فى أيام السجن الأولى ،
ولكن الكتابين كانا قد وصلا إلى فى البريد الأخير فوجدت
الفرصة سانحة للفراغ منهما فى هذه العزلة المقصورة ا

على أنى لو تعمدت الاختيار المناسب « لمقتضى الحال » .
كما يقولون لما اخترت غير كتابين من هذا الباب وعلى هذه
الوتيرة ، فليس أحب الى الانسان من أن يعوض حركة الجسم
إذا فقد هاجركة الخيال ، وليس أقرب الى المعقول من أن
يلتمس فى عالم القراءة ما يعز عليه فى عالم الواقع ، وأى قراءة
أليق بالسجين على هذا الاعتبار من تاريخ يصاحب به حركة

الانسانية بأسرها من بداية نشأتها ومن قبل نشأتها إلى يومها
الحاضر؟ أو من سيرة رجل قضى حياته كلها جامعاً بين رحلات
الخيال ورحلات السياحة ورحلات الهوى والمغامرة؟

فقد أحسن القدر الاختيار لي فيما أرى . . . ومن قبل ذلك بأعوام
أذكر أتى كنت أتقى ما أقرأ وأنا مريض يائس من الشفاء ،
فكانت يدي تتجه إلى نوعين من الكتب بينهما مسافة بعيدة
من الاختلاف في الموضوع والوجهة ، وأعني بهما الكتب
التي تغلب عليها النزعة الجسدية والمتع المادية والكتب التي
فيها بحث عما وراء الطبيعة واستكناه الحقائق الأرواح وعالم
الغيب ، وما أشد الاختلاف بين الموضوعين ؟ وما أبعد
المسافة بين النوعين ؟ ولكن الصلة التي تجمع بينهما أقرب الجمع
بعد ذلك هي « التعويض » النفسى الذى يشتركان فيه ، فكلاهما
كفيل بتعويض المريض الذى يحس من نفسه أنه سيفقد الحياة ،
وإنما يعوضانه في عالم الخيال والتفكير . لأن حياته الواقعية تريحه
مقدار الحاجة إلى عالم الحس كما تريحه مقدار الحاجة إلى عالم الروح

على أننى لم ألبث أن عرفت أن للكتاب فى السجن فائدة
غير فائدة القراءة ، وربما كانت فائدته الأخرى هي المقصودة

فى كثير من الأحيان عند كثير من المسجونين ، ولا سيما
المصاحف وكتب الدين على اختلاف الأديان .
أما هذه الفائدة الأخرى فهى الاستخارة . . . وهى أن
يفتح القارئ الكتاب على الصفحة اليمنى ثم يعد سبعة أسطر
ويقرأ ما يصادفه فى السطر السابع ، فإذا هو المصير الذى ينتظره
و « القرعة » التى تصيبه بغير تدبير ولا مجاملة ولا مداراة .
فإذا كان الكتاب مصحفاً أو سفرأ دينياً كائناً ما كان فذاك اذن
أشبه بالوحي السماوى وصوت النذير من عند الله

ولا أظن أحداً من القراء لم يسمع قائلاً يقول فى دهشة
وغضب : « أتريد أن أغالط نفسى ؟ . . . » كأن مغالطة النفس
أبعد الأشياء ! وكأن الانسان لا يغالطه إلا الآخرون ولا
يغالط هو إلا الآخرين

ولكن ساعة من ساعات الضيق الشديد أو الحزن الشديد
أو اللهفة الشديدة لترين الانسان — كل انسان — أن المغالطة
الكبرى إنما تكون من جانب النفس لا من جانب الخادعين
بين الأصدقاء والأعداء ، فهو يصدق الرجاء أو العزاء لأنه يحتاج
إلى تصديقه ، لأنه يقيم البرهان عليه ويتبين الوقائع التى ترجحه
وتقويه ، والمقياس الوحيد لصدق العزاء فى ساعة الضيق انه

ضرورى لازم لا أنه صحيح معزز بالبرهان ، ولهذا يغتبط المسجونون بالبشارة التى تأتى من الاستخارة كأنها خبر وثيق لا كذب فيه ، بل يغتبطون بها لأنها خبر لا يضير فيه الكذب مادام يسر ، ولا يفتقر إلى تمحيص الغد مادام مقبولا فى حينه

وقد كان بعض المسجونين الذين يلقونى عند الحلاق ويروتى فى غفلة من الحراس يحدثونى ببشائر « الاستخارة » والأحلام كأنهم يتحدثون « بالأسانيد » والبيئات ، فاشكر لهم مودتهم ولا أحب ان أززع فيهم ركناً من أركان العزاء ، وما أوهى أركان العزاء جميعاً عند بنى الانسان !

كان باب الحجرة عندى مفتوحاً للتنظيف فى صباح يوم ، فجاءنى زميلى ودليلى وجارى السيد على شاهين يحمل مصحفه ويعلمنى هذه الفائدة الجديدة من فوائد الكتب بين جدران السجون ، ومن المصادفات المدهشة أنه أخذ فى الاستخارة لنفسه وانفتحت له إحدى الصفحات اليمنى من سورة يوسف فقرأ فى السطر السابع : « سوا إلا أن يسجن أو عذاب اليم . قال هى راودتنى »

فاتفص صاحبنا كأنما سمع الحكم بالسجن يتلى عليه ! وحق له أن يتفص لأن المصادفة فى الحقيقة كانت من المدهشات التى

قلبا تتفق في هذه الاستخارات ، إذ ليس في المصحف كله آية تناسب استخارة السجين الذي سيحكم عليه كما تناسبها هذه الآية . ولكن ما أعمق معين المغالطة في نفس الانسان كلما احتاج إلى الرجاء والعزاء ! . فان صاحبنا لم يقف عند السطر السابع بل زعم أن أصول الاستخارة تقضى بمتابعة المعنى إلى تمامه ، وجعل يقرأ ويقرأ حتى وصل في ختام الصفحة التالية إلى الآية التي تقول : « فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهم إنه هو السميع العليم »

وكنت أقلب في كتاب « تاريخ العالم » فقال لي صاحبي :
« ألا تستخير عندك ؟ »

قلت : « وهل تصلح الكتب الاfrنجية للاستخارة ؟ »

قال : « جرب ! »

ولأظن شيئاً يبعث الأسي على تاريخ بني الانسان المساكين كما تبعثه الاستخارة في كتاب تاريخ عام . فما أذكر أننا وقفنا على سطر إلا وكان فيه عراك أو نكبة أو معنى محزن إن كان فيه معنى على الاطلاق ، وفي إحدى هذه الاستخارات ظهرت لنا آية قرآنية مترجمة علمت موضعها بقلم زصاص كان مع السيد

على شاهين ، ولم أكن أنا أحمل قلبا ولا رضيت أن يحمل إلى شيء من المهربات ، فاذا السطر السابع منها هكذا :

Grieve at what had escaped you, nor at what befell you; and Allah is aware of what yaou do)

وتمام هذه الآية من القرآن في سورة آل عمران : « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ، فأثابكم غمّاً بغم لبكى لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون ، ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاساً يغشى طائفة منكم »

وفي اليوم التالى لدخولى السجن أبلغت أن المصلحة ترخص لى فى شراء الصحف التى أريدها على حسابى ، فتعبنا جداً فى إحضار صحف المساء قبل الغروب واغلاق الحجرات — نوهى توزع فى ميدان القلعة نحو الساعة الرابعة — لأن البائع الخبيث علم أن هذه النسخ « مضمونة البيع » فالأولى به إذن أن يبدأ ببيع النسخ « غير المضمونة » !! ولم يشأ من أجل هذا أن يحضر الى السجن وفى ضوء النهار بقية ، وأصر على ذلك مع تنبيه مرة بعد أخرى ، وان كان هذا لا يمنعه أن يلتقانى بالدعاء والابتهاال .

كلما خرجت من السجن وكلما عدت اليه في طريق التحقيق والمحاكمة !

وربما علم بعض حضرات القراء أنني شرعت في أيام سجنى أتعلم اللغة الفرنسية ، وهى مصادقة من المصادفات أيضاً لم تكن تجول في نيتى عند مادخلت السجن واخترت كتب القراءة التى تقدمت الاشارة اليها ، وانما فكرت في ذلك على أثر تحية وجيزة لقيتها من رجل ايطالى مهاجر وضعوه في الحبس ريثما يتثبتون من « جنسيته » فى الوكالة الايطالية . فقد اقترب منى هذا الرجل يوما ورفع قبعته محييا وهو يقول بالفرنسية : « يا حضرة النائب .. » ثم شفع ذلك بكلام كل ما فهمته منه يومئذ أنه قرأ أخبار قضيتى وأنه يسره أن يرانى ويبلغنى تحياته . فحاولت أن أفهمه جوابى بالانجليزية فلم يفهم إلا قليلا لا يزيد على ما فهمت منه ! فسألت نفسى : وما بالى لا أتعلم الفرنسية فى هذه الفرصة ؟ أمامى الآن نحو خمسة اشهر وهى مدة كافية للامام بالمبادئ ، ولم يكن وقت التحقيق ضالحا للشروع فى هذا البرنامج لأنه وقت غير محدود .. فلنبدا الآن فقد عرفنا بعد صدور الحكم بالحبس البسيط مدى ذلك الوقت المحدود

وأنت أيها القارىء — وقاك الله — لا تعلم كما علمت أنا
فى السجن أن دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول
« قلم » إلى حجرة سجين باذن من مصلحة السجون ، فان
الترخيص للسجين بحمل القلم يقتضيه كما قيل لى ان يكتب عريضة
لادارة السجن وأن ترفع هذه العريضة إلى مدير المصلحة وأن
ترفع بعد ذلك إلى كل من وزير الداخلية ووزير الحفانية ،
وهناك يصدر الأمر بالرفض أو القبول اذا شملته رعاية خاصة ،
والأرجح أن يرفض لغير سبب إلا ان الرفض مباح للرئيس
وانه فى معظم الأحيان شرط من شروط الرئاسة
ولم كل هذا العناء ؟

نعم إن القلم ضرورى لتعليم الأسطر كما تعودت فى دراساتى
ومطالعاتى ، ثم تدوين الكلمات التى تراجع وتحفظ ، ولكنى
استعصت منه بالظفر أحزّ به العلامة فى الهامش وفى خلال
السطور ، وبثنى الصفحات فى مواضع المراجعة والاعادة .
واستغنيت عن كتابة العرائض التى يقول فيها جبرائيل لميكائيل
وميكائيل لاسرافيل واسرافيل لعزرائيل ، ثم لا تنتهى بعد ذلك
إلى كثير ولا قليل

ومن طرائف المقترجات التى سمعتها وأنا أبدأ دروس
الفرنسية الأولى أن أدع هذه اللغة وأعد نفسى — بدرس الفقه
والشريعة والتصوف — لأن أكون إماماً وأعظاً فى الأقطار

الاسلامية ؛ وأن أفطن للحكمة الالهية التي قبضت لى محنة
السجن كما فطن لها صاحب الاقتراح الملمهم بظهر الغيب
وجعل صاحبي — أعني صاحب الاقتراح — يسأل ثم
يجيب نفسه

— هل تستحق أنت بلاء السجن ؟ لا ولا ريب ! ..
إذن لا يظلم ربك أحداً ، وما أراد ربك بسجنك إلا نفعك
ونفع المسلمين بك ، وأن لا تكون غاية سعيتك خدمة الوطنية
المصرية دون الجامعة الاسلامية . فدع الفرنسية واقرا في
الاشهر الباقية كتب التفسير وأصول الدين وتجرد لما جردك
له الله ، وثق أنك هنا لأمر عظيم

وهكذا كان يحاورني من حين الى حين رسول تلك البشارة
المغموطة ، والهداية التي تخلق الهداة على الرغم منهم ! ورسولنا
هذا هو هندي متورع مجبوس في قسم الحمايات لتهمة اختلاس
في تجارة كبيرة ينكرها أشد الانكار ، ويزعم أن عداوته
للحكومة في الحركة الهندية هي علة تلفيق التهمة عليه ، وكان
لا ينقطع عن كتب التفسير والأحاديث يقرأها بالعربية فيفهمها
بعض الفهم ولكنه يتكلم الانجليزية إذا أراد التبسط في الحديث
وفارق الرجل السجن وفارق مصر وهو بغصة المحسور على
ذلك الامام الذي هو واثق انه امام منتظر ، وواثق كذلك أنه قد
ضيع بينديه الامامة التي أعده لها القدر ، وما أعجب الجمع بين الثقتين !

المنع والترخيص

كل شيء في السجن ممنوع حتى يصدر الأمر بإباحته والغاء منعه
فالأصل في السجن « المنع » لغير سبب وبغير تفسير ، فإذا
أبيح عمل من الأعمال وأجيز أمر من الأمور ، فذاك الذي يحتاج إلى
سبب ويحتاج بعد ذلك إلى ترخيص واستئذان .

وأن هذه القاعدة وحدها كافية لأن تجعل السجن سجونا
كثيرة بعضها أضيق وأثقل من بعض . ولكنها مع ذلك رحمة
سماوية إذا قيست إلى الطريقة التي ينفذونها بها حرفاً حرفاً ومرة
مرة ، بغير تصرف ولا قياس ولا مراعاة للنظائر والمناسبات

فإذا أبيع الشيء مرة فأنما يباح في حالة لا تسرى إلى غيرها
وفي وقت لا يمتد إلى ما بعده ، فلا يمكن أن تتكرر الإباحة ولو
تكررت الدواعي والمناسبات ، ولا يمكن أن يباح الشيء الذي
يشبهه تمام المشابهة ويجرى مجراه في وصفه وفخواه ذهاباً مع
القياس والاستطراد ... كلا بل كل شيء مباح بحرفه ووسمه
ووقته وشخص المقصود به ، فإذا تغير الحرف أو الوسم أو الوقت
أو الشخص فقد بطلت الإباحة وعاد المنع كما كان .

وبعض الأمثلة غنى عن الاسهاب في هذا الباب
كان قوام طعامي خارج السجن الفاكهة والخضار الطازج
ولاسيما في الصباح والمساء ، وقد ميزت من الخضار الجرجير

والخمس ، ومن الفاكهة الكمثرى الايطالية والجوافة ، لأن هذه
الفاكهة تشتمل على خلايا وبذور تساعد الهضم بخشوتها مساعدة
لا تقوم بها الثمار الأخرى

فأما الفاكهة فقد فصلت فيها مصلحة السجون من قديم
عهدنا الأول فصل أنبياء بنى إسرائيل في المباح والمحظور من
الطعام والشراب . فهذا حلال وهذا حرام ، ولا نقض بعد ذلك
ولا إبرام . وليست الكمثرى مما يسمح به ذلك « الحاخام » ...
أما الجوافة فلم يحن أوانها من العام !

واختلف الحال في الخضار فلم يتنزل في أمره تحريم كذلك
التحريم بين آيات الكتاب العظيم ، ولكن كهان الهيكل قد
حجروا على ما أباح الكتاب واسعاً فلبث « المنع » الأصيل في مكانه
القديم لا يتراجع عنه ولا يريم !

كتبت اللجنة الطبية التي تقرر لى أصناف طعامى كل
أسبوعين هذه العبارة فى تذكرتى الصحية : « يصرف له خضار
كالفجل والجرجير ... »

فمضت أيام وأنا لا أرى غير الفجل فى كل غداء ، والفجل ،
وقاك الله ، صنف يحتمله الهضم الضعيف يوماً ثم لا بد له من
أسبوع على الأقل لينساه ويجازف مرة أخرى بالرجوع إليه .

فأما الفجل وحده ولا خضار غيره مطبوخاً أو نيئاً في كل غداء
فذاك بلاء للهضم الضعيف وليس بغذاء أو دواء
قلت : « فأين الجرجير ؟ »

قالوا : « إن الساعى الذى يذهب فى طلب هذه الأصناف
لا يجده فى السوق ولا يسهه أن ينتظره حتى يتعذر منه الباعة
فى الطريق »

قلت : « وما باله لا يشتري الحس مثلاً أو التكرات ؟ »
قالوا : « إن اللجنة الطبية لم تسمح بغير الفجل والجرجير »
قلت : « بل سمحت بكل خضار لأنها لم تذكر الفجل
والجرجير إلا على سبيل التمثيل »

قالوا : « لا بد من سؤاها والاستئذان منها ، لأنها لو
شامت لذكرت أسماء الأصناف الأخرى . ولم تقصر الإشارة
على هذين الصنفين »

وبديه أن السجن مدرسة كما يقولون ، ولكنه ليس بالمدرسة
التي ألقى فيها درسا فى معنى التمثيل بالكاف أو فى معنى
التخصيص والتعميم . . .

وسمحت لى اللجنة باللبن فى طعام الافطار فكأنها قد سمحت لى بكوب فارغ لا شىء فيه ، لأن اللبن الذى يصل إلى فى الصباح الباكر لا يكون صالحاً للغذاء ، ولا ينبغى أن يصلح لغير الاهراق قبل ذلك بساعات

وبيان ذلك أن اللبن الذى يجلبه المتعهد إلى مستشفى السجن إنما « يسلم » فى الساعة العاشرة من كل صباح والساعة العاشرة موعد حسن لمن يتناولون اللبن فى الغداء ، وموعد لا بأس به لمن يتناولونه فى العشاء ، على شريطة أن يكون محلوياً فى صباح يومه ولا يكون « بائناً » متخلفاً من اليوم الذى قبله

فأما فى طعام الافطار فأين هو المستشفى الذى يطعم مرضاه لبناً مضت عليه أربع وعشرون ساعة فى الصيف أو فى الشتاء ؟ وخطر لو كىل السجن الذى خاطبته فى هذه المسألة عند مروره بى ساعة الرياضة أن « يتصرف » فيها بعض التصرف على خلاف القاعدة المرعية هناك ، فامر رئيس الممرضين أن يضع المقدار اللازم لى من اللبن فى « الثلاجة » من ساعة وصوله حتى ساعة تقديمه فى صباح اليوم التالى ، عسى أن يمنع ذلك فسادة وتخثره ويبقيه سائغاً سليماً حتى موعد الافطار

لكن رئيس الممرضين ذهب إلى المأمور يستأذنه كما هي العادة في كل شيء، فانكر المأمور هذا الحل « الهرطقي » لأنه بدعة عجيبة لم يتنزل بها الوحي في « الناموس » القديم، ووجب أن يهرق اللبن هدرأ وأن يلغى الافطار عليه حتى تعود اللجنة الطبية إلى فحص جديد

وليس يخفى أن « النظام » لا يمكن أن يمنع وضع اللبن في ثلاجة العمل الملحق بالمستشفى أو في أى مكان يحتويه، ولا يمكن أن يمنع صيانة اللبن من الفساد بغير كلفة ولا نفقة زائدة مادام الثلج لا ينقطع عن العمل في صيف ولا شتاء، بل صيانة اللبن أنفع للمستشفى وأقل نفقة عليه من شراء لبن جديد لي في الصباح الباكر قبل حضور الأطباء.

ولكن « الناموس » لم ينص بالحرف والوصف على قنينة من اللبن توضع في ثلاجة لأجل سجين يسمى عباس العقاد فهو قد نص إذن على المنع والتحريم !!

على أن الأخطر والأغرب في باب الضحك والفكاهة، لولا ما فيه من مساس بالحياة، هو قصة انتقال إلى المستشفى أو انتقال المستشفى إلى، ثم ما كان بعد ذلك من فصل حكيم في هذه المشكلة العضال التي ليس لها إلا ذكاء سليمان بن داود

وسيعجب القارىء من «عنوان» هذه القصة كما أسلفته لأنه
ان يتخيل أن هناك مشكلة تقوم بين مريض ومستشفى لينتقل
المريض إلى المستشفى أو ينتقل المستشفى إلى المريض

ولكنه إذا عرف القصة على جليتها لم يستطع أن يتخذ لها
عنواناً أصدق من ذلك العنوان ، فهي في الواقع خلاف بينى
وبين المستشفى قد انتهى — بحكمة سليمانية — على أن ينتقل هو
إلى بدلا من انتقالى أنا إليه

وجلية القصة أن الأطباء قرروا بعد أيام من دخولى السجن
وجوب وضعى فى مستشفى ومعاملتى فى اختيار الطعام والفراش
وأوقات الرياضة معاملة المرضى

ولكن ماذا حدث بعد هذا القرار ؟ هل نقلت إلى المستشفى
كما يقضى العقل و « النظام » ؟

كلا ! وإنما الذى حدث أنهم اعتبروا الحجرة التى أنا فيها
ملحقة بالمستشفى وانفض الاشكال ! !

وقد أبلغونى ذلك الحل الحكيم فاضحكى على الرغم من
مضض السجن وتعب الجسم وسوء العاقبة ، وأصبحت أعذر
ذلك العطار الذى حسب أنه استراح من النمل بكتابة كلمة الفلفل

على حق السكر فان هذه الحيلة العطارية ليست باغرب من حيلة السادة المشرفين على السجون الذين كتبوا اسم المستشفى على حجرة العنبر ، فاصبحت بهذه المعجزة السحرية مكاناً صالحاً للعلاج ، مشرقاً بالضياء ، متوهجاً بحرارة الشمس ، معزولاً من الرطوبة ولا أحسب الفرق عظيماً بين من يحاول تضليل العناصر الطبيعية بكلمة على حق كبير ، ومن يحاول تضليل النمل بكلمة على حق صغير فهما ولا ريب في البراعة سواء .

ولما قلت لهم إن المستشفى فيه حجرة تدخلها الشمس ويتخللها الهواء وتصلح للإقامة فيها قالوا : « وكيف تقيم فيها ؟ أليست فيها دواليب الملايس ؟ »

قلت : « وهل يستحيل نقل هذه الدواليب ؟ أليست صحة مريض أولى بمكان في المستشفى من دولاب ؟ »

فدار البحث أياماً بين السجن والادارة العامة والأطباء والنيابة وغيرها من المراجع التي لا أدريها ، ثم ظهر بعد طول البحث وشدة التنقيب أن الدولاب الأصيل أولى بمكانه في المستشفى من الانسان الطارئ الغريب !

وغاية ما صنعوه بعد جهد جهيد أنهم نقلوني من الحجرة الأولى إلى حجرة أخرى في طرف العنبر مزيتها على زميلتها

أن الشمس تناولها — في الظاهر — من حائطين اثنين بدلا من حائط واحد

ولما انتقلت إليها واقترحت عليهم أن يفتحوا في الحائط الأخر كوة صغيرة تنفذ منها الشمس إلى داخل الحجرة ، حسبت من دهشتهم واستغرابهم أنى طلبت إليهم أن يفتحوا ثلثة في الدين أو ثلثة في نظام الدولة .. ساحنى الله !

غير أنهم في هذه الحجرة الجديدة قربوا الشبه بينها وبين المستشفى من وجوه مختلفة غير كتابة العنوان على الباب ، فغلقوا شعاع الباب بالزجاج وجعلوا للنافذة رتاجاً يفتح ويقفل ، ومدوا إليها أسلاك النور الكهربائى الذى لا ينقطع طول الليل عن المستشفى الأصيل ، ولم يفعلوا ذلك إلا بعد ما استحال ترك الحجرة بغير نور ، وبعد ما ثبت أن بقاءى فى الظلام الحالك بلا قراءة ولا حديث ولا شاغل من الساعة الخامسة فى المساء إلى الساعة السادسة فى الصباح ، أسبوعا بعد أسبوع وشهراً بعد شهر هو علاج وييل لا ينصح به أحد من الأطباء . ولكنها إباحات السجن ولا بد فى طى كل إباحة من قيد أو قيود .

فالمفتاح الذى ينير ويطفىء النور لا بد أن يركب عند الباب

من خارج الحجرة ، ولا يصح في حكم النظام أو حكم
« الناموس » أن يركب في داخلها لكي أفتحه وأقفله حين
أحتاج إلى فتحه واقفاله

وهو في تركيبه خارج الحجرة يظل معرضاً لكل سجين
يعبر بالعنبر أو يمشى في الدور ، ولا يكون معرضاً لسجين
واحد يحرص عليه لأنه ينير له ويعينه على شأنه ، ولكنه النظام
ولا تفسير ولا تأويل لما يقضى به النظام !

فاذا فرغت من القراءة الساعة العاشرة أو الحادية عشرة أو
الثانية عشرة فسيبلي أن أقرع الباب السميك أستدعي الحارس
ليتولى هو بيديه « شعائر إطفاء النور » فاذا كان قريباً
متيقظاً في تلك الساعة فالخطب هين ، والدعوة لا تطول إلا
ربّما تجاب . أما اذا ابتعد أو نام فالحل الوحيد في حكم النظام
هو ازعاج السجناء الذين معي في الدور جميعاً لإدارة المفتاح
الصغير ، فان لم يكن هذا فبئس سهران إلى الصباح لأن أعصاب
عيني لا تألف الغمض في الضياء

١ - أخلاق

الآلفة شرط المعرفة

ولا تصدق هذه القاعدة على شيء كما تصدق على أخلاق الناس واستطلاع أسرار الانسانية التي لا تنكشف — وليس في الوسع أن تنكشف — من اللقاء الأول

فنحن لا نعرف شعباً من الشعوب ولا فرداً من الأفراد حق عرفانه حتى نقاربه ونعاشره ، ونزيل ما بيننا وبينه من حجاب الغرابة الذي يمنعنا أن نتغذى إلى قرارة نفسه وتتغلغل إلى بواطن أعماله ومناشئ إحساسه ، وما يراه هو طبيعياً عادياً في نظره ويراه الآخرون في أنظارهم غريباً أشد الغرابة بعيداً أشد البعد من العادات المألوفة

لكن الصعوبة في الأمر أن الغرابة مانعة للمعرفة من جهة ولازمة لها من الجهة الأخرى

مانعة للمعرفة لأنها تحجب عنا الأسرار التي تنطوى وراء الظواهر ولا تنكشف إلا بانكشاف الأستار والحواجز

ولازمة للمعرفة لأن المعرفة هي التمييز والفصل بين الحدود ، وكيف ترانا نميز إنساناً من إنسان ، إذا نحن لم نشعر بوجود الاختلاف والغرابة بينه وبين غيره ؟ أو نعتقد أنه مخلوق غير الخلائق الأخرى في دخليته وظاهر أمره ؟

لهذا كانت المعرفة الحقيقية أصعب الأشياء وأدعاهها إلى اليقظة والانتباه . لأنها تفرض على النفس أن تجمع بين النقيضين في وقت واحد ، وترى الشيء غريباً ومألوفاً في حالة واحدة ، وإنما يكون تدليل هذه الصعوبة بأشراك الشعور والخيال والعقل في البحث عن الأمور التي نبتغي عرفانها والنفاذ إلى بواطنها ، فميراث العقل متناقضاً مختلفاً يجمعه الشعور في نور واحد ويتولاه الخيال بالتقريب أو التبعيد حتى تتمكن النفس من إدراكه واستيعابه على حقيقته التي تخفى عن الحس والمشاهدة

وفي السجن يعاني الباحث هذه الصعوبة بعض المعاناة حين يراقب أخلاق السجناء ويعالج التمييز بينهم وبين سائر الناس في الطبائع والعادات . فهو يراهم مئات وألوفاً ولا يرى غيرهم في حالة تعارض حالتهم ومعيشة تفرق من معيشتهم ، فيسبق إليه — من ثم — أنهم وسائر الناس على حد سواء في جملة الأحوال ، وأنتك تستطيع أن تبدل ألفاً منهم في جنح الظلام بألف من يعيشون خارج السجن دون أن تحس الفارق بين هؤلاء هؤلاء . عند طلوع الصباح !

إلا أن هناك أمراً خليقاً أن يهون هذه الصعوبة ويزيل اللبس والاختلاط بعض الإزالة ، وذلك أن المسافة بين هذه البيئة

« السجنية » وبين الباحث الغريب عنها تظل بعيدة مفصولة مهما
يطل الوقت ويطل الفارق في مكان الإقامة ، فتبقى بينه وبينها
على طول المدى وقرب الجوار مسافة كافية للرؤية الصحيحة
والتمييز الواضح

ومن السهل على من يراقب أحوال هؤلاء السجناء أن
يقسمهم قسمة عاجلة إلى طائفتين من المجرمين مختلفتين في البواعث
والأخلاق وضروب الاجرام

فهناك مجرم الاعتداء الذي لا يبالي ايلام غيره
وهناك مجرم الخسة الذي لا يبالي ما يجلبه على نفسه من
العار والمهانة

وأظهر ما يبدو من خلائق المجرم الأول — مجرم الاعتداء —
أنه جامد الحس من ناحية الشعور بالألم على إطلاقه ، فهو يتحدث
عن أفع المصائب وأشنع حوادث القتل والتعذيب كأنه يتحدث
عن فكاهة لا إزعاج فيها للسامع ولا للمتكلم ، وقلها يدرك
استغرابك إذا أنت استغربت هذه اللهجة منه في وصف
الفظائع والموجعات دون التفات منه إلى وقعها أو مبالاة
فرائسها أو المستمعين لقصصها . وقد كان في الدور السادس —

وهو الدور الذى فوق دورنا الخامس فى عنابر السجن
فتى من قرى الصعيد قتل أخته فى القاهرة لأنها هربت من
أهلها ولاذت بدور البغاء ، فتعقبها حتى عثر بها فى الدار التى
تسكنها ، وراوغها أياماً وهو يخفى عنها قصده حتى اطمأنت إليه
وسالته ومهدت له صنوف المتعة بصواحبها وجاراتها ، وهو
يتحين الفرصة لقتلها فى غفلة عن حولها ، إلى أن سنحت له
ذات يوم ففاجأها بطعنة سكين وانقض عليها بالطعنات دراكا
حتى فارقت الحياة . فى ليلة من ليالى السجن طاب له السمر
واستدرجه زملاؤه فى الحجرات المجاورة له إلى شرح قصته ،
فما راعنى إلا أن أسمع هذا الفتى يصف قتل أخته ، وكيف غرر
بها ، وكيف تناول الطعام معها وهو يخفى السكين فى ثيابه ، ثم
كيف طعنها بعد ذلك ، وكيف صاحت به تناديه باسم الاخوة
وتناشده حرمة المشاركة فى الامومة ، ثم كيف قضى عليها
واحترز رأسها وسافر به إلى بلده ليريه أنداده وقرناه الذين
عيروه من قبل واستطالوا عليه . فلو أنه كان يتكلم عن ذبح
شاة أو دجاجة لما اختلف الأمر ولا تباينت اللهجة ، ولا كان
أقل من ذلك مبالاة بما يقول واسترسالاً فى النكات والمزاح
كلما عبث به أصحابه وتعمدوا احراجهم واستفزاز طبعه . وليس

هذا كله من الغيرة على العرض والنخوة للكرامة ، فان الغيرة على العرض تثير الغضب والنقمة ولكنها لا تخلق البلادة ولا تعمي الانسان عما صنع بعد فوات الثورة وسكون الهياج ويقظة النفس للذكرى والاستعبار والأسف على ما كان من سبب القتل والاضطرار إليه

ومع هذا ربما كان لهذا الفتي القروى الجاهل الخشن عذره من عادات قومه وشدة الغيرة في نفسه ، وربما كان يبالغ في الاستخفاف بفعلته لتخدير شعوره والألفة من الندم على شيء هو من واجبه في شرع فتوته وفي شرع أبناء بلده ، ولكني سمعت فتي متعلماً يباهى بقليل ما تعلم من الدروس الابتدائية والثانوية ويكلم سجناء « الحماية » باللغة الانجليزية ليدهم على حظه من الدراسة ، ويرينهم أنه سليل طبقة غير طبقة المسجونين معه في مثل جرمه ، وكان قد حكم عليه بالسجن خمس سنوات لاشتراكه في جماعة مؤلفة للسطو على الأغنياء ، فلما استدرجوه ذات ليلة للكلام عن سبب سجنه لم يتردد في ذكر السبب الصحيح ، ولم تبد على كلامه مسحة من الندم والخجل ، وإنما كان يبدو عليه الزهو بانتباهه إلى جماعة لها فروع وقرارات ورؤساء أقسام واجتماعات ومداولات ، وكان يتحدث عن

قتل من تقرر عندهم قتله كأنه يتحدث عن عقبة يفخر بالمهارة
في إزالتها ، ولا يفرض لها حياة تصان وتتعلق بها الآلام
والأحزان ..

وقد كنت أسمى هذه البلادة في هؤلاء المنكوبين « أنانية »
أو إمعاناً في الأثرة العمياء لو كانوا يشعرون بالآلم في نفوسهم
ولا يشعرون بالآلم في نفوس غيرهم ، ولكنهم على ما علمت من
أطوارهم الكثيرة محجوبون عن شعور الآلم حيث كان ، فلا
يحسونه في أبدانهم ولا في ضمائرهم كما يحسه الآخرون فيما
يعتريهم من المؤلّمات الجسدية والفكرية ، وربما ضرب أحدهم
رأسه بالحائط ضرباً عنيفاً دامياً ليتهم غيره بضربه ، أو ربما
وخز نفسه وعرض أعضائه للتلف من أجل أيام قليلة يطمع في
قضائها بالمستشفى أو تحت الرقابة الطبية ، وقد قطع أحدهم بضعة
من جسمه بحديدة كلية يكتبون عليها في السجن رقم السجين
ولا تصلح للقطع إلا بجهد شديد ، لأنه قدر أن هذه الفعلة قد
توقع مأمور السجن في عقوبة أو شبهة إهمال !

فالآفة عند سجين الاعتداء إنما هي آفة نقص في وظائف
الشعور وليست آفة « الأنانية » على معناها الشائع المفهوم ،
وليس يبعد أن يجرم الإنسان لفرط الشعور بالآلم كما يجرم

لقلة الشعور به في نفسه وفي غيره ، ولكن هذا الصنف من
المجرمين نادر جد النادرة بين من شهدت في سجناء «قره ميدان»
أما مجرم الخسة الذي لا يبالي العار والمهانة فهو حقير بين
ضراة المجرمين المعتدين ، يقولون عنه أنه «نتن» يدخل السجن
في غير طائل ويصبر على الإهانة وسوء المعاملة من السجنانيين
ولا يستثار

ومعظم ما يقترفه هؤلاء المجرمون «الاخساء» مقصور على
صغائر السرقات والاحتيايل على الصغار والاغرار وما إلى ذلك
من جرائم النذالة والطمع الوضيع

وهم في الحق «نتنون» كما يقول عنهم زملاؤهم من
أصحاب الضراوة والاعتداء: شعورهم بالعار ضعيف وشعورهم
بالزهو أضعف ، ويعترفون على إخوانهم علانية بأقبح الرذائل
في غير حياء ولا إحساس بفقدان الحياء ، ومع هذا تأتي الطبقة
الانسانية أن تحرم أحداً نصيبه من الزهو والمباهاة ولو كان من
أدنى الأدنياء ، فحتى هؤلاء يزهون فيما بينهم ببعض الخلال
ويأخذون على أنفسهم بعض العيوب ، وبماذا يزهون ؟
يزهون بالافتتان في أساليب النذالة والاحتيايل الشائن

المرذول وعلى من يعيون ؟؟ ... يعيون على الجهلاء
بتلك الأساليب ١ وعلى المحدثين فى الاجرام لأنهم بلهاء لا يفهمون
الخدع و « المصطلحات » التى يفتن لها ذوو الدراية
بالسجون ١١ وهم فى كل حال لا يعدون الزهو الرخيص الذى
لا يكلفهم جهداً من الجهود

٢ - أخلاق

من أصدق المقاييس التي تسير بها طبائع النفوس الفكاهة
والغناء

فإنك لن تجد الفكاهة ولا الغناء في نفوس خلت كل الخلو
من الخير والمحبة الانسانية وصلاح الفطرة للعطف والمواخاة .
فالسليقة التي تعرف الفكاهة تعرف مواطن الضعف
والتناقض من النفوس الانسانية ، أو تعرف — بعبارة أخرى —
أسرار النفس وخفاياها وما تداريه وما تكشف عنه وما
تقابل به الدنيا وما تحفظه في أعماق سريرتها ، فكأنما تلك السليقة
على اتصال أخوي حميم بجميع النفوس الآدمية ، كاتصال الصديق
بصديقه المطلع على دخائل قلبه وحقائق نياته ، وكأنها على
استعداد دائم لأن تضحك مع جميع النفوس ضحك السرور
والمشاركة ، وأن تضحك منها ضحك العطف والمداعبة ، وتلك
حالة نفسية لن تخلو من الخير والشعور الحسن من ناحية بني
الانسان .

أما السليقة التي تحسن الغناء أو تحب الاصغاء إليه فهي سليقة
تحس وتعرف الوزن والنظام بشيء من الزكاة والالهام ، وهي
— كتلك — سليقة تلتقي بالنفوس الأخرى في مجال العاطفة
والذوق والشعور بالجمال

وفي السجن لم أر إلا عدداً يسيراً جداً يحسن الفكاهة ، وإن كنت رأيت سجناء كثيرين هم موضوع فكاهة ومشار ضحك ودعابة . ولا أذكر أنني سمعت كلمات كثيرة تدل على فطنة للمواقف المضحكة والمساجلات النفسية اللطيفة ، وإن كنت قد سمعت كثيراً من النكات المحفوظة والفكاهات المكررة التي يفوهون بها كما تفوه البيغاء بما يلقي إليها من الأصوات

ولم أسمع قط غناء حسناً من سجناء الجرائم العنيفة أو سجناء الجرائم الخسيسة . ولكنني سمعت الغناء الحسن من بعض الفتيان المحكوم عليهم بالحبس في قضايا تهريب المخدرات وتعاطيها ، وهم في أغلب الأحيان مسخرون ينقادون لكبرائهم المسيطرين عليهم ، لم تنفوس فيهم بعد نذالة الجريمة العامة المدبرة التي تطلب الكسب من وراء الأضرار بالناس ، ومن كان منهم يتعاطى المخدرات فهو ضعيف يعتدى على نفسه وليس بمجرم من أولئك الجناة الأشرار الذين يعتدون على غيرهم عدوان المكيدة أو عدوان الضراوة

فاذا اتخذنا الفكاهة والغناء مقياساً للخير والمحبة الإنسانية في نفوس السجناء فأهل الخير فيهم قليل ، وهذا القليل الموجود يشف — في أغلبه وأعمه — عن معدن وضيع أو معدن

مشوب ، وإن لم يحز لنا أن نقول إن الخير فيهم معدوم وإن صلاحهم ميئوس منه ، ولا سيما حين يعالجون بما يناسبهم وحين يقتربون حسن النية في علاجهم بالفكرة الرشيدة والعزم الصبور ويخطئ من يظن أن السجناء لا يغنون كما يغنى الطلقاء والأبرياء كلما وجدوا فرصة للغناء ، فانهم ليهتفون ولا يقصرون في الهتاف ملء صدورهم كلما خلاهم الجو تحت ستر من الليل ، وربما كانوا أشد كلفاً بالشدو والهتاف من الطليق المرسل على أرسانه ، لأن رفع الصوت وسيلة من وسائل الشعور عندهم بالحرية وإرسال النفس على السجية ، فهو مطلوب لهذا الغرض ولو لم يكن فيه طرب أو سلوى ، ولا حاجة بالإنسان إلى دخول السجن لعرفان هذه الحقيقة بل لاستماع هذه الحقيقة الصارخة من مسافة بعيدة ! فإن العبور على مقربة من السجن بين العشاء والساعة التاسعة كاف لاستماع ما يسمعه السجناء في الداخل من الغناء والهتاف ، وقلما تمر ليلة واحدة دون أن يدوى السجن بأناشيد أهل الصعيد ومواويل أبناء البلد على اختلاط لا تميز فيه بين السامع والمسموع ، ولكن أهل الصعيد وأبناء البلد كما يعلم القراء يغنون كأنهم يتكلمون ، أو هم يغنون ويصيحون حين يعوزهم السمر

والكلام وتكل ألسنتهم من السكوت ، وليس هذا
الذى نعينه بالغناء المبين عن الطبائع والأخلاق ، وإنما نعى به
الأوزان الفنية التى تتجلى فيها الأذواق وخلجات العواطف
وألوان الاحساس ، وهذا الذى نقول إنه قليل نادر بين
المجرمين .

وربما كان الأولى بى أن أتخذ مقياساً آخر للخير فى طبائع
زملائنا السابقين يعينى أكثر مما تعينى هذه المقاييس التى تعم
جميع الباحثين فى هذه المشاهدات ، لأننى اختبرت من معاملة
زملائنا صنوفاً من البر والطيبة مختلفة المصادر والأسباب ،
فكنت أنا نفسى مقياساً محسوساً يقاس به ويقيس !

فمنهم — وهم القليل — من كان ينطوى على كرم ماثور
ويلوح لنا من بعض بواده وتصرفاته أنه يقبل على نفسه حالة
السجن ومضانكه وآلامه ولا يقبل أن يعانىها رجل من ذوى
الصناعة الفكرية ، كأنه يحس فى قرارة ضميره بفارق بين
عمله وعملنا ، وسائقه إلى السجن وسائقنا ، ولا يأنف أن
يعترف بهذا الفارق ثم يرجع كفتنا على كفته عند الموازنة
ومن هؤلاء من كان أساء لنا واهتنامه براحتنا والتسرية عنا

يكلفانه المجازفة الجريئة والاقدام على العقوبة وتضييع حقه في الاعفاء من ربع المدة وهو الحق الذي يناله كل من قضى مدة السجن بغير إخلال بقواعد النظام ، ويزيد في فضلهم أنهم كانوا لا يطمعون منا في جزاء عاجل ، ولا ينتظرون الجزاء بعد الافراج عنهم وعنا ، إذ كان موعدهم بمفارقة السجن بعد موعدا بسنوات أو شهور طوال

وقد كان بين هذا الفريق قتي يجيد الغناء بعض الاجادة ، ويبيت فيه شيئا من الحنين السائغ والبواعث الشجية ، وكان يخشى الحراس إذا غنى مساء لأنه معروف الصوت في السجن كله لا يختلط حيث كان بأحد غيره ، فكنت أسمع بعض زملائه الذين يحضونه على الغناء يقولون له إن « الأستاذ » — ويقصدونني أنا — هو الذي أوعز الينا أن نقترح عليك كيت وكيت من الأدوار ، فلا يتردد في الاجابة دون أن يعرفني أو أعرفه ودون أن يلقاني أو ألقاه

ومنهم من لا يبلغ مبلغ هؤلاء في كرم الخليفة ولكنه يخدمنا ويبدل المعونة لنا عن غبطة منه بإنشاء العلاقة بينه وبين أناس يراهم أرجح منه منزلة وأكبر ممن تجمعهم بهم علاقة الزمالة ، ويرضيه أن يستحق من هؤلاء الناس كلمة الشاء وعرفان الجميل والشعور بفائدته لهم في حالة من الحالات ،

وتلك ولا ريب نية خير لا غبار عليها ، لأنها دليل على طبيعة لم تتجرد من التطلع إلى حسن الظن وطيب الأحدوثة
ومنهم من كان باعته للخدمة والمعونة إعجابه بالجرأة كما يفهمها ، ونظره إلينا كما ينظر إلى أنداده الجسورين في معارك الفتوة ومقاحم الضرب والمصارعة ، وهو باعث لم نكن نغيبط به وإن كنا لانسى حسن النية فيه !

وكلهم كانوا يضمرون لنا شعور المودة ويخلصون الرغبة في بذل المعونة الميسرة لهم كلما أتاحت لهم وسيلة من وسائلها

على أننا لم نخطئ في معظم السجناء عاطفة مصرية صميمة لاحظناها في جميع المصريين على تباعد الطبقات والأقاليم ، ونعني بها « عاطفة العائلة » وما يتفرع عليها من رعاية الأرحام والأنسان

رأيت مرة طفلاً صغيراً من الأطفال الذين يودعونهم سجن مصر ريثما ينقلونهم إلى سجن الأحداث في الجيزة ، وكان هذا الطفل مع أقرانه الصغار ينتظرون الترحيل في فناء السجن المعرض لأنظار الرؤساء والسجانين ، فمر به سجين من العائدين في جريمة السرقة ، فرفع له الطفل رأسه وناداه بلهجة المسكنة

الطبيعية التي يستشعرها الصغير في غيبة أهله وقال له « جوعان ! »
فتمهل اللص العائد هنيهة ثم قال له : « وماذا أصنع لك
يا بني ١٩ » وانصرف آسفا فظننته لا يعود ولا يفكر بعد ذلك
في الطفل المستغيث ، ولكنه ما لبث أن عاد بعد دقائق ومعه
رغيف سرقة من الخبز فقسمه نصفين وأعطى الطفل نصفه
واستبقى لنفسه النصف الآخر ، ولو نظروه وهو يسرق الخبز
لما نجا من الجلد الأليم أو من السجن على انفراد
ورأيت رجلا شيخاً نازلاً من درج المستشفى وهو
لا يقوى على الحركة ، ولا يجد الممرض الموكل به وبغيره من
يقوى على حمله ، وكان على مقربة منه يافع لم يتجاوز السادسة
عشرة لا يدل مرآه على ضلالة ولا على صحة سليمة ، فشق عليه
أن يبصر الشيخ المريض يتعثّر في خطاه ويثنّ من وجعه ،
وتقدم إليه فحمله ومشى به على جهد شديد حتى أعياه حمله
دون أن يكافه الممرض ذلك أو يخطر له أنه قادر على هذا
العبء الفادح ليافع مثله

وتلاحى شيخ فان وقتى عارم مشهور بالشر والعريضة في
السجن وفي الحى الذى يعيش فيه ، فسبه الشيخ سباً لا يطيقه
من قتي فى سنه ، ولا يأمن من يسبه به ان يستهدف لضربة

قاسية ، فما صنع الفتى المسبوب إلا أن بدا عليه الدهش والتردد لحظة ثم هز رأسه وقال لمن حوله : « أنظروا إلى الرجل الشايب يعيب ولا ينجل . . . » وقال للرجل الشايب : « لو غيرك قالها لمقتله ! ولكن ماذا عسى أن أعمل لك وأنت أكبر من أبي ؟ »

وهذه على التحقيق ظاهرة اجتماعية ملحوظة في أخلاق الأمة المصرية بأسرها ، سببها فيما أرى قدم العهد في هذه الأمة بحياة الأسرة والحياة الاجتماعية والبيتية على أجمالها ، وهذه الظاهرة في تكوين الأخلاق وتحويل العادات قرار عميق لا يغفل عنه المصلح الاجتماعى المشغول بأطوار هذه الأمة العريقة ، ومن زمام هذا الخلق الأصيل ينبغى أن يتناول المصلح الاجتماعى أهم دواعى الإصلاح فيمن يحتاجون إليه من الضالين والزائغين ، سواء كانوا من نزلاء السجون أو من الطلقاء الذين نجوا من العقاب ولم ينبج الناس مما يجترحون عامدين وغير عامدين

الوعظ

من المناظر — وولك أن تقول من المسامع — القليلة
المؤنسة في السجن حلقات الوعظ التي يعقدونها بين حين وآخر ،
ففيها يتسنى لمن بالسجن أن ينظروا إلى اجتماع إنساني يخاطب
فيه السجناء خطاب أصحاب النفوس التي قد يثمر فيها الكلام
وقد يرجى لها العلاج ١

رأيت أول حلقة من هذه الحلقات يوما من أيام الاثنين
على ما أذكر ، إذ كان بعض الحراس ينطلقون بين الحجرات
ينادون : « المسيحيين المسيحيين » وأنا أعجب لهذا النداء
ولا أدري لماذا يجمعون المسيحيين وحدهم دون بقية السجناء ،
وقبل أن أسأل أحداً عن القصة رأيت الواعظ المسيحي في
ثيابه السود ، فذكرت الوعظ في السجن وانتظرت أثناء
الرياضة الصباحية حتى أسمع ما يقول باسم الدين لهؤلاء
الخارجين على الشرع والقانون

وما هي إلا لحظات معدودات حتى أقبل السجناء المسيحيون
أفراداً متفرقين من مذاهب شتى لا تجمعها كنيسة واحدة ،
فجلسوا بين يدي الواعظ القرفصاء إلى زاوية مشمسة في فناء
السجن ، وجلس هو على كرسي وفتح التوراة وأخذ يقرأ منها

ما صادفه من القصص ويشرح معناها بصوت يعلو ثم يعلو حتى
يسمعه من في الميدان القريب

ومنذ ذلك اليوم كان يطيب لى أن أشهد هذه الحلقات
وأسمع ذلك الواعظ كل يوم اثنين ، لأنه كان يتحدث عن قصص
التوراة حديث الحاشية المخلصة عن النوادر الملكية التى تقع
بين كبار السلاطين وكبار الأتباع ذوى الدالة عليهم ، وكان
يروى التجارب التى يبلو بها الله أنبياء بنى إسرائيل كأنها
مفاجآت الأب الشيخ الحكيم حين يمتحن مدارك الأبناء الصغار
ويغتبط بما يراه من حيرتهم البريئة وضعفهم المستسلم ، ويضحك
أحياناً ضحك العطف والرجاء حين يكشف لهم عن دعواهم
القاصرة وغرورهم المتعجل ، فيطيب لى أن أرى التوراة منقولة
إلى عالم الخيال الفطرى والتصوير الشعرى والتمثيل الفنى الذى
لا تكلف فيه

وكان من عادته إذا فرغ من شرحه ووعظه أن يطلب إلى
أحد السجناء أن ينهض للصلاة والدعاء ويجهر بما يجيش فى نفسه
ونفوس زملائه ، فمنهم من يحسن الكلام ومنهم من يتعثر
بالألفاظ المألوفة فى الأدعية والصلوات ، وكل أولئك بما يستحب
الأصغاء اليه والتأمل فى مغزاه

ولا أحسب أن أحداً منهم كان يجيد الكلام في دعائه
وصلاته كما كان يجيده رجل من أضرأهم بالشر وأولاهم
بالعقاب وأسوتهم سيرة بين السجناء ، وإن شهدوا له بالبراعة
والذكاء : وهو تاجر مخدرات مشهور

سمعتة مرة يصلي ويذكر خطايا الخاطئين وآثام بني
الانسان . . . فسألت عنه فقيل لي هذا فلان صاحب الحيل
المعروفة في ترويج المخدرات ، وكنت قد سمعت عنه وعن
قضاياه وأحاييله في إيقاع صرعاة ، وإغرائهم بتناول السموم
وإدمانها ، فقلت لو كان هذا المصلي الخاشع يدعو الله ليستجاب
دعاؤه لما دخل السجن ولا قام مقامه هذا للصلاة فيه ! ولكنها
حيلة جديدة من حيله الكثيرة ، ولعلها أيضا من حيل التخدير !

ويتردد على سجن مصر عدة من الوعاظ المسلمين بين
الصبيحة والظهيرة ، ولكن في غير موعد مقرر أو يوم معلوم
فاذا وصل أحدهم إلى السجن جمعوا له سجناء دور من
الأدوار في ساحته الأرضية ، وجلس هو على كرسي أمامهم
ينصح لهم ويحذرهم عقاب الآخرة بعد عقاب الدنيا على طريقته
في النصيح والتحذير

فبعضهم كان يحفظ خطبه ويعيدها كما هي كل مرة بعد
تحويل طفيف لا يقدم ولا يؤخر ، وهو يحاول أن يذهل سامعيه
من السجناء عن هذا التكرار برفع الصوت والتلبس بالغضب
والصرامة في الزجر والانذار ، ويمضي في تكراره مطمئناً إليه
لأنه يعظ في كل مرة سجناء دور واحد من أدوار السجن
الكثيرة ، وتنقضي مدة طويلة بين العظتين في الدور الواحد يخيّل
إليه أنها كفيّلة بالتشكك والنسيان .

وبعضهم يتوخى الطريقة العصرية في إختيار المناسبات
واتخاذ المناسبة الأخيرة من بعض الحوادث الطارئة التي لها
مساس بأحوال سامعيه

وبعضهم يعتمد على التأثير بالسن والمهابة والسمت والثياب
الفاخرة ، ويحيط عظامه بمراسم طنانة كأنها مراسم أصحاب
العزائم والتعاوين

وكان يعينني أن أراقب السجناء حين يحضرون إلى العظات
وحين ينصرفون ، لأرى كيف يقبلون عليها وكيف ينصرفون
عنها وكيف - فيما بين ذلك - يستمعون إليها

فبدا لي أن أناساً منهم يحضرونها بروح الهازي المستخف
الذي يتحدى الواعظ بشقاوته واستعصاء أمره ، وكأنما

يقول بينه وبين نفسه ، : (هلبو إلى ذلك الرجل الطيب الذى يحسب أنه يفهم من الأمور مالا نفهم ، لنرى كيف يعلمنا العقل والدربة ، ويصلحنا بكلماته وتهويلاته)

وأناس منهم يرحبون بساعة الوعظ كما يرحب التلميذ بساعة لعب يستريح فيها من حصة الدراسة ، ويأنس فيها بالجلوس بين إخوانه فى شيء من الطلاقة والسباحة

وأناس آخرون يرحبون بساعة الوعظ لأنهم يغتمون فيها الفرصة حين يزجرهم الواعظ. ويصب عليهم اللوم والتبكيت ، لينشوه الشكوى من قسوة الحراس وجور الأحكام . ويلقوا شيئاً من اللوم على (النظام) وشيئاً من اللوم على الأيام

ولا تخلو جموعهم من أفراد تلحهم عند انصرافهم منكس الرأس كاسفى البال من أثر الوعظ أو من تداعى الخواطر واسترسال الخيال ، وربما سمعتهم يرثون لأنفسهم ويندمون على ما فرط منهم ، ويودون لو هداهم الله وردهم أناسا كسائر خلقه لا يعرفون المحاكم والسجون ، ولا يبتغون العيش إلا من الرزق الحلال ، ناعمين وادعين بين الأمهات والآباء والأزواج والأبناء ، ثم يعلقون ذلك كله على القدرة والاستطاعة ، وهم مستقرون فى ضمائرهم على أنهم لا يقدرُونَ ولا يستطيعُونَ ،

لأنهم لا بد لهم من العيش وكسب الرزق ، وهم يشكون بوار
الصناعات وشح الناس وندرة الأعمال

على أن أثر الوعظ في الجملة ضعيف سريع الزوال ، وقد
يلغ من ضعف أثره وسرعة زواله أن ينقضه بعض سامعيه في
ساعة سماعه ، وأن يصبح الواعظ نفسه هدفا يرميه أولئك
الخبثاء ، وجسداً يصيدونه ، ودليلاً يثبتون به أو يثبتون فيه بطلان
وعظه وضياع جهده وعبث رجائه ، حتى يخيّل إلى الإنسان
في هذه الحال أن حلقة الوعظ إنما هي حلقة سباق وصيال بين
الجريمة والهداية ؛ تلتقيان فيها لتنظر كلتاها أيهما هي الأقدر على
الظفر بالآخرى وتعريضها بين المتفرجين للهزيمة والسخرية . . .
انتقاماً منها لا اعتداداً بنفسها وسوء ظنّها بقوة غريمتها ؛ وقليل
تمثل حلقة المباراة هذه في شيء كما تتمثل في القصة التالية التي
سمعتها من أحد موظفي السجن ، والعمدة على راويها .

أعرف واعظاً مشهوراً يطوف بلاد القطر ويحب أن يتخذ
أبناء من موعظيه في كل بلدة وكل إقليم ، يرعاهم رعاية أبوية
يسره أن يرى منهم حفاوة البنوة وتحيتها ؛ ويمد يده للتقبيل ،
ما انتهى من وعظه غير ممتنع ولا ناظر إلى تقبيل يده إلا كما

ينظر الأب إلى تحية الاعتراف والشكر من ولده

وشاخ الواعظ الذي أعنيه وضعف عن الطواف في أنحاء القطر ، ولكنه لم ينقطع كل الانقطاع عن الوعظ في السجون وإن أطال الفترة بين عظاته كلما تقدمت به السن وجاء الشيخ يوما وهو لا يكاد يقوى على الجلوس والحركة إلا بمعونة معين ، فأسهب في نصائحه على عادته وملاً السجن بأصوات الدعوات يلقيها على سامعيه ، ثم يطلب منهم تكريرها مرات متواليات بنغمة مرتلة يلقنهم إياها وهو يهتز بينهم على نغمة ترتيلها ، أو يتركهم يعيدونها ويسبح في غيبوبته العلوية حتى يفيق منها !

فلما ختم عظاته وترتيلاته تدافع السجناء حوله يهمون بتقيل يديه والتماس البركة منه فإذا هو يحجم عنهم ويصبح بهم صيحة منكرة : « مكانك يا ولد ! إياك أن تقترب يا ولد ! من بعيد يا ولد ! » كأنه يرتل هذه الكلمات على طريقته في ترتيل النغمات ! قلت لبعض الموظفين عن اتفاق وجودهم على مقربة مني . « ما خطب الشيخ يأبى تقيل اليد من هؤلاء ؟ أزهادة منه في السجناء ؟ أم زهادة في هذا الصنف من قبيلات الأبناء ؟ »

قال : « لا هذا ولا ذاك ، ولكنه معذور لأنهم سرقوه :

مرة ويخشى أن يعيدوا عليه الكرة ، فهو يجانبهم هذه السنوات ويستعيض الله خيرا من تلك القبلات »

قلت : « ياسوء هذا التقريظ ! أيسرقون واعظهم وهم في دار العقاب ؟ »

قال : « لقد فعلوا جزاءهم الله من أبناء أعقة ، وفعلوها في يوم تجلى فيه الأستاذ فاختلب القلوب وأبكى العيون ، وأرسل يديه لهم ينكبون عليهما بالتقيل ويوسعون من التسيح والتبجيل ، وهو يحسب أنهم ينتصحنون ولا يسرقون ، وينتفعون بما يفعلون ، فقد أشبعهم وعظا وهداية فأشبعوه اعترافا ورعاية .

وذهب إلى حجرة المأمور وقد رضى عن نفسه وأحب أن يكافئها بعطسة أو عطستين من عطسات الايمان والتسميت برحة الله : فضرب يده في جيبه الواسع فاذا علبة السعوط ضائعة . . . وأسرع إلى مكان الساعة الذهبية الثمينة فاذا الساعة ضائعة ! وكيس النقود أين هو ؟ لا ريب أنه لن يبق في الجيب إذا فارقه الصاحبتان الحيمتان !

« وطارت بقايا الوعظ من رأس مولانا ، وصاح بالمأمور يستغيث ، فأكبر الرجل أن يصاب الاستاذ في كفاله بهذه الخسارة الفادحة لأنها خسارة في وعظه وفي ماله ، فجمع السجناء

الموعوظين ولما يستقروا بالحجرات ، وأقسم لهم لينسكن بالسارق شر تنكيل إذا هو اهتدى إليه ولا بد أن يهتدى إليه ، فلينقذ نفسه من شاء السلامة ولا عقاب عليه .

« فأما علبة السعوط فقد عادت فارغة لأن « الشطار »

أحرص من أن يفلتوا من أيديهم شيئاً فيه رائحة الدخان

« وأما الساعة فقد عادت لأنها لا تنفع ، وعاد معها كيس

النقود لأن النقود التي فيه أكبر من أن تبلى ، وسئل

السارقون : كيف تجترئون على الاستاذ وتستحلون ماله وعتاده

وتزدرون وعظه وإرشاده ؟ فقال خبيث منهم : ما اجترأنا عليه

ولا سرقناه ، وإنما هي بركة من مولانا نغتمها وتتقرب بها إلى الله ! »

قال الموظف الذي يقص على ما رآه : تلك قصة الشيخ ، فهل

يلام إذا هوضن بهذا المال المبارك وفرط في القبلات ؟ وهل

عليه جناح إذا هو أشفق من هذا الإفراط في اختلاس البركات ؟

ونحسب أننا نظم السجناء إذا أحلنا الذنب كله في فشل

المواعظ على رداة طباعهم واستعصاء ادوائهم . فالواقع أن

المواعظ على أحسن حالاتها لا تشفى غلتهم ولا تخاطبهم بما

يناسبهم ولا تتحرى دجائيلهم ومواقع التأثير والاقناع من

طواياهم ، والواقع أن إصلاح الأخلاق عسير في السجنون

وهي على نظامها القامع الذي يفرض السكبت على الطبائع ، ويشل وظائف الحياة في جسم قوية ونفوس لا تقصد العفة لطهارة . أو قداسة حتى يقال إنها تستفيد بالرياضة وعلاج الشهوة والارادة وأشد من ذلك إيذاء لأخلاق السجناء أنهم يفقدون في السجن الدرس الوحيد الذي هم مفتقرون إليه

فهم أناس منحرفون يحزيمهم القانون بما يحزيمهم به حين يعتدون ويسلبون ، لأنهم يؤمنون بالعنف والقوة ولا يؤمنون بالحقوق وآداب الاجتماع ، ويعتقدون أنهم في حرب مع المجتمع من غلب فيها ظفر ولا جناح عليه ، فاذا استطاع أحدهم شيئاً فعله ولم يحسب حساباً لما يجوز له وما لا يجوز

فماذا يلقون في السجن من معاملة السجانيين ؟ يلقون من معظمهم ما ثبتت في نفوسهم تلك العقيدة ويزيدهم إيماناً بأن الأمر قائم على العنف والغشم واعتداء من يستطيع العدوان . ويأس الضعيف المغلوب من انصاف ذوى السلطان ، فيبطل درس الشريعة والأدب ويبقى درس الواقع الذي شبوا عليه من : نشأتهم الأولى ووجدوا مصداقه في السجن ومبادة الإصلاح والتوبة ، وكيف يراد منهم أن يعدلوا عن ذلك الدرس ويرتابوا في صدقه وهم لا يجدون إلا ما يؤيده ويزكيه !

ليلة المستشفى

إذا كان السجين يستنقذ كثيراً من الحيلة والخبث في تهريب
المنوعات فمن الحق أن نعلم أنه لا يستنقذ حيلته كلها ولا خبثه
كله في هذا المطلب العزيز، ولكنه يستبقى كثيراً منهما أيضاً
لتهريب صنف آخر عزيز عند السجناء وإن كان بغياً أشد البعض
عند الطلقاء، وهو المرض، قاتله الله.

نعم «المرض» أغنى ولا خطأ في الكتابة ولا في الطباعة !
فإن الأمور لتتقلب أحياناً في السجن رأساً على عقب حتى يتمنى
المرء فيه ما يتمنى الخلاص منه وراء جدرانها، والمرض بعض
هذه الأمور.

إذا تيسر بقضاء من الله فذاك لطف من الله ! وإذا لم يتيسر
فالصناعة تغنى هنا ما ليست تغنيه الطبيعة، والمرض الصناعي
لمقلد عزاء لمن فاته المرض الطبيعي الأصيل، حتى يأذن الله بما
يشاء.

ولهذا برع السجناء في تقليد الأمراض على أنواعها وفي
مقدمتها الأمراض الجلدية والأمراض التي ترتفع بها الحرارة،
فليس أيسر عليهم من اصطناع الحمى أو اصطناع الجرب والبثور
الكريهة وأغراض الإصابات السرية، وتسمع الواحد منهم
يهمس لصاحبه في أثناء الرياضة أو يناديه بالليل إذا أمن الوشاية،

« غداً حتى في العيادة يافلان ! » أو « غداً في قسم الجرب ! »
خاذا هو موعد يلتقيان فيه ساعة بل ساعات وقد يطول إلى يوم
بل أيام ، لأن المريض الذي يلتبس مرضه على الطبيب يحجز
في قسم « الملاحظة الطبية » حتى تنجلي حقيقة دعواه وتسفر
الملاحظة عن دخوله المستشفى أو إعادته إلى الحجرات ، مع
جرعة مريرة من العقاب .

وليس العقاب بالشئ المهم عند مصطفى المرض وطلاب
الراحة فترة من الزمن ولو أعقبتها التعب المضاعف ، فإن السجن
إذا ظفر بالانتقال إلى قسم « الملاحظة الطبية » أياماً فقد غنم
الفراغ من العمل أولاً ، وغنم الطعام المقبول في بعض الحالات
ثانياً ، وغنم لقاء أصحابه الذين يحال بينهم وبينهم في الحجرات
والمصانع ، وقد يسعده الحظ عند الطبيب فيغنم الصعود إلى
ساحة الرضوان عند السجناء ، وهو المستشفى !

وهذا المشفى إذا رآه إنسان من الطلقاء عافه لأول نظرة
ولم يصبر على البقاء فيه ساعة واحدة ، ولكنه مع ذلك أمنية
لا يسعد بها إلا المجدود وصاحب الحيلة التي تتسع لصنوف
كثيرة من المداورات والمراوغات ويعلمها بعض موظفي السجن
وبعض الأطباء ، ولكن لا يتسع المقام هنا للتفصيل والبيان

أما كاتب هذه السطور، فليس من السعداء المجدودين ،
ولكنه من الأشقياء المطرودين ! لأنه وصل إلى المستشفى وفر
منه تحت بواد الليل ولما تنقضى عليه غير ساعات ، وماذا عساك
أن تصنع لمن يرقى إلى هذه الأمانة الغالية ثم يدركه البطر فيدفعها
عنه يديه ؟

هكذا حصل . فقد علم القراء أتى دخلت السجن بذخيرة
من السعادة في عرف السجناء تكفي عشرة منهم لو كان هناك
عدل في القضاء !

دخلته بألوان من السقام فوق الاصطناع وفوق التقليد ،
ولم ألبث أن نقلت إلى المستشفى - حكما ورسمًا - وأنا لم أبرح
حجرتي الأرضية التي لا تدخلها الشمس ولا تفارقها الرطوبة !
فلما سألتهم : ألا توجد في المستشفى حجرة مفردة تدخلها
الشمس وتفارقها الرطوبة ؟ قالوا نعم توجد هذه الحجرة
ولكنها مشغولة بدواليب الملابس كما أسلفت في بعض هذه
المقالات ...

وعلى هذا لا بد من البقاء حيث أنا أو الانتقال إلى إحدى
الغرفتين الواسعتين في المستشفى للإقامة هنالك مع جمهرة من
المرضى قد تبلغ العشرين

فبقيت حيث أنا عدة أيام ، وبقى الزكام يتقدم ويتقدم حتى
احتبست الأنفاس وامتنع النوم وعيف الطعام وهبط وزن
الجسم بضعة أرطال ، ولم يبد من الظواهر ما يدل على تحسين
قريب في الحجرة الأرضية المحسوبة من المستشفى ، وهي معزولة
عنه بحراس وإسداد

لقد رأيت ذلك المستشفى — أى رأيت ساحة الرضوان.
بعينى — مرات فى خلال زيارة الطبيب ، ولكنى لم أطمح إليه
ولم أزل أتوقاه وأتحماه ، فلما طال الأمر وخيفت العاقبة قلت
ألا تجرب ساحة الرضوان مع المجريين ؟ ألا تفتأ على زهدك
فى هذا الرجاء الموعود وفى كل رجاء عند القوم موعود ؟

وجئتهم صباح يوم لم أنم فى ليلته لحظة واحدة فأنبأتهم أنى
أوثر غرفة المستشفى الواسعة بين أشتات المرضى على البقاء فى
هذه الحجرة المسقمة ، فلما كان العصر جاء الاذن بالانتقال
فانتقلت إلى غرفة المجروحين والمكسورين ومعى بعض الصحف
والكتب والعقاقير والقوارير

وانقضت الساعات الاولى على مايرام :

نظرت من النافذة التى كان سريرى يقابلها فإذا بى أرنى

ميدان القلعة والناس يذهبون فيه ويبحثون والمركبات تروح
فيه ذات الشمال وذات اليمين ، وهذه سعة — ولو نظرية —
لا يشعر بها السجين بين حجرات العنابر الأرضية ، فغالطت نفسى
قليلا وقلت بخير !

وهبط المساء فأضاءت المصابيح الضئيلة واستطعت أن
أقضى هنية فى قراءة الصحف المسائية ولم أكن أستطيع ذلك
فى الحجرة الأرضية قبل إدخال النور إليها ، فغالطت نفسى مرة
أخرى وقلت خير ... ولعله خيران !

وسكن ليل السجن إلا إصداً من الطريق فاستوى كل
مريض على سريره ، وأخذوا فى السمر الطريف ، وأى سمر
طريف ؟ هذا مدمن مخدرات قبضوا عليه وأودعوه سجن
الاستئناف ريثما يفرغون من تحقيق أمره فألقى بنفسه من الدور
الثانى إلى الأرض هرباً من الدنيا التى يحرم فيها بلاء المخدرات ! ...
وهذا مدمن آخر يصف كيف يعالجونه من دائه بنقل الدم من
جسمه إلى جسمه لأن دمه لا يزال كالسّم المخدر إذا سرى إليه
أغناه عن الجرعة المشتهاة ، وهذا يذكر أياته فى سجن طرة الكبير
بين القتلة وقطاع الطريق وهو لا يخلو فى ذكرياته من ازدراء
حاضره والحنين إلى ماضيه ، وهذا يتحدث بما عاناه فى دخول

المستشفى من العنت والبلاء ، وبين ذلك كله جريح يئن وآخر يقضى ضروراته على مشهد من حوله ، وآخر يستدعى صاحبه ليعينه عن قضاء ضروراته عجزاً منه عن القيام والحركة . . . وقس على ذلك ما عداه

وكانت النوافذ مفتوحة في ساعات المساء الأولى ، فلما أغلقت واحدة بعد أخرى فشت روائح الدواء وما هو شر من الدواء في الغرفة المغلقة ، وزاد الكرب حين هدأت الأصوات وخيم السكون فلم يكن يقطعه إلا أنين مقلق أو زفير محتق من بعض أولئك المساكين ، وإلا دقائق الساعة الكبرى في مسجد القلعة تتزايد في عدتها على الحساب العربى كأنها تستحث الليل بالزاكد الثقيل

وجعلت أصابر الوقت لحظة بعد لحظة ولا سبيل الى الاغفاء ، وكلما ابتدأ نصف ساعة قلت سأنام قبل انتهائه وهو ينتهى وينتهى ما بعده ولا اختلاف بين الانصاف ولا الساعات ، وكنت أحصى الوقت على الحساب الأفرنجى بظهور الممرض صاحب النوبة وهو يفتح الباب كل نصف ساعة ويتسلل الى آخر الغرفة ليدير مرصد الساعة الذى يسجل له مثابرتة على السهر

طول الليل ، ومضيت أشغل الوقت خلال هذه الفترات
بفكرة واحدة لا تتبدل وهى : هل من فائدة للانتظار ؟ وهل
أرجو أن أستقر فى هذه الغرفة أياماً وشهوراً وتلك حالتها بضع
ساعات ؟ ثم انقضت الساعة الثانية فطاولت نفسى الى الثالثة فى
انتظار نوم نافر لبثت أنتظره ليالى متعاقبات ، وشعرت بمضض
انتظاره تلك الليلة فى كل لحظة لما خامرنى من خيبة الأمل وما
أحاطبنى من التغيص والايذاء ، فلما كانت الساعة الثالثة بلغ الصبر
غاية مداه ، ولما انتصفت الرابعة بادرت الممرض وهو يفتح
الباب وطلبت اليه أن يدعو ضابط الحراسة تلك الليلة ، فتردد
قليلاً ثم لم ألبث أن سمعت قرعة المفاتيح فى هبوطه على السلم
وصعوده بعد فترة ومعه ضابط الحراسة

سألنى الضابط مستغرباً : ماذا جرى ؟

قلت : لا شئ إلا أنى لا أطيق المكث بهذا المكان ولا
بدلى من العودة الى الحجرة أو المبيت فى أى مكان غير المستشفى
فتبسم كأنما كان ينتظر هذه النتيجة وقال لى : وماذا كنت
تصنع لو صادفتك القرعة فى قسم الامراض الباطنية ؟

قلت : اهو شر من هذا ؟

قال : بما لا يقاس

قلت شكرا لكم على هذه المرحمة ؟ ولكن الحجرة على كل حال ارحم من الغرفتين ، لاني أجد الارق هنا وهناك ولكني آرق هناك ولا أسمع الاتنين ولا أشم هذه الروائح ولا أرى ما يسوء .

وهكذا ودعت المستشفى غير آسف وطويت الليلة ساهدا إلى الصباح ، ثم خرجت من السجن بعد عدة شهور ولواني استعرضت ليالى فيه لما استطعت أن أذكر بينها ليلة أسوأ ولا أنكا من ليالى تلك في ... ساحة الرضوان .

أحمد حمزة

أحمد حمزة رجل بارع الذكاء.

بل هو أبرع الناس ذكاء. إن كان المقصود من الا انسان أن.

يفهم عكس ما يفهمه الناس

فاذا اتجه الفهم بين الناس من اليمين إلى الشمال فالشيخ أحمد.

حمزة خير من يفهم من الشمال إلى اليمين ، وكل ما هنالك - كما

يرى القراء - اختلاف في اتجاه الفهم كالاختلاف في اتجاه

الكتابة بين العرب والاوربيين : فريق يبدأ السطر من يمينه

وفريق يبدأ من شماله ، وكلهم يكتبون ويقرأون

واحمد حمزة هذا ليس بسجان ولا بموظف في السجن ولا

بزميل فيه ، ولكنه طاهى البيت عندى منذ عشر سنوات

ولا يعرف القارى. كنه طريقته في الفهم إلا ببعض الأمثلة.

الواقعة ، فالى القارى. من هذه الأمثلة قليل من كثير

أيسر طلب تطلبه منه يجرى على هذا الأسلوب :

— هات قهوة ياشيخ أحمد

— نعم ؟

— هات قهوة .

— أجيء بماذا ؟

— بقهوة !

— بقهوة تقول حضرتك !

— أى نعم بقهوة

فيكتفى ولا يحوجك بعد ذلك — لذكائه — الى يمين مغلظة
ليصدق أنك تطلب قهوة !

وكنا على المائة سبعة فطلبنا من الشيخ أحمد حمزة
أن يضيف الى كراسى المائة الستة كرسياً سابعاً من غرفة
الاستقبال .

ثم كان الأسبوع التالى فكنا على المائة أربعة ، وكان
كرسيان من كراسى المائة خاليين ، ولكن احمد حمزة صف
الكراسى الستة على حسب العادة وجاء بالكرسى السابع من غرفة
الاستقبال ، لأن هذا المكان حق كسبه الكرسى بالاستعمال ...
ولما ضحكنا وأغرقنا فى الضحك نظر الرجل الى الكراسى ونظر
الى ما حوله والى نفسه فى حيرة واستغراب لا يدرى فيم يضحك
هؤلاء الناس ولا يمين يضحكون ... أينكرون عليه زيادة الكرسى
وهم الذين أمروه بنقله قبل اسبوع ؟ أضحكون منه ان خالف
ويضحكون منه أن أطاع ؟ لا جرم يعقل هؤلاء الخلق من اليمين
إلى الشمال حين ينبغى أن يكون العقل من الشمال الى اليمين ! ..

وكنت متعباً في بعض أيام التوعلك والانحراف
وكنا نهى مكانا في البيت لا حضار قطعة من الأثاث ونحب
أن نقيس المكان الذي توضع فيه على حسب المقاس المطلوب
فقلت له عليك يا شيخ احمد بالمتر فقس الحائطين وقل لي
أيهما أطول وأصلح لوضع الأثاث المنتظر ، فضى هنية ثم عاد
يتمم ويوسوس كمن يناجى الغيب

قلت : ما الخبر يا شيخ احمد ! هل قست الحائطين ؟

قال : نعم

قلت : وكم الطول ؟

قال مثلاً : ثلاثة أمتار

قلت : وكم العرض ؟

قال : كذلك ثلاثة أمتار

فعجبت للأمر لأنى أعرف أن الحجرة ليست مربعة
ولكنها مستطيلة بعض الاستطالة ، وسأله : أى الحوائط
الأربعة قست ؟

قال : الحائط الذى فيه الباب والحائط الذى امامه !

وكان فى المنزل ضيوف ذات يوم وأنا أفضل إذا كان فى

المنزل ضيوف أن أغسل يدي في حوض المطبخ وادع لهم حوض الحمام ، فدخلت المطبخ — حرم الشيخ احمد — وطلبت من صابونة فذهب وعاد بها وأنا أبداً غسل يدي ووجهي على مهر ولا أحسب أن هناك ما يدعو الى العجلة . ثم خرجت فاذ بالضيوف كلهم عند حوض الحمام ينتظرون الصابون لازم الشيخ احمد أخذ الصابونة من ذلك الحوض ولم يخطر له أن يسأل نفسه لماذا أجشم نفسي أن أغسل يدي ووجهي في المطبخ وأدع لهم الحمام ، وإنما قيل له : هات صابونة فجاء بصابونة . وهذا هو المطلوب ولماذا لا يجيء بها من حوض الحمام ولم يقل لأحد مؤكداً مشدداً : إياك أن تجيء بها من حوض الحمام ؟

أما معجزة الشيخ احمد الكبرى فهي تلك التي صنعها بصورة قصر أنس الوجود وقد تركته هو وتركت المبيضين بالمنزل ونجوت بنفسى الى مدينة أخرى فرارا من ربكة الآثام المشتت الذي لا يطاق معه قرار . فتجلت هنا عبقرية الشيخ احمد التي تخلف كل ظن وتخرق كل حد وتخرج عن كل تقدير . لقد خطر لي أن أقصى ما يستطيعه الشيخ احمد من إعجازه المعهود في هذه الحالة أن يضع الصور في غير مواضعها منحرفة نحو اليمين أو نحو الشمال وصاعدة الى الأعلى أو هابطة الى الأسفل ، فقيدت مواضعها بمسامير لا تتحول وأوصيت المبيضين أن لا يخلعوا المسامير عند

طلاء الجدران ، ولكن أين يذهب بي سوء الظن بأفانين هذه
العبقريّة التي تهوى أبداً أن تداعب الظنون وتتخطى الآماد بما
تحيط به الأفكار والأوهام ؟ فقد عدت من غيتي القصيرة
فوجدت الصورة والحق يقال في مواضعها تماماً بلا انحراف ولا
تحريف ، ولكنني وجدت أنس الوجود مقلوباً يقع فيه النيل
موقع السماء وتقع فيه السماء موقع النيل !!

وانما يبدو لنا مدى هذا الإعجاز إذا علمنا أن الشيخ أحمد
من أهل ذلك الاقليم الذي قام فيه أنس الوجود ، فلو كانت
« الرؤية » وحدها كافية لتصوير أثر من الآثار لكان الشيخ
أحمد أولى من المصور الكبير « هدايت » بتصوير ذلك الهيكل
غيباً بلا معاينة ولا استحضار !!

وللشيخ أحمد ملكة نادرة في نسيان الاسماء ثم تحريفها
وتصحيفها عند التذكر أعجب تحريف وتصحيف
فاذا تكلم « راشد » مثلاً بالتلفون في غيتي ثم سأله :
من الذي تكلم ، فمن المستحيل أن يكون المتكلم راشداً وانما
هو « منشة » على التحقيق أو التقريب ؛

ويتهى « جاماتي » عنده الى « جماد » . . والشجاعى الى
رجل من « كوم الشقافة » . . والطناحى الى الصنافى . .
وذو الفقار الى زعفران . . وقس على ذلك سائر الاسماء

قلت : يا شيخ احمد . ارحنى أراحك الله بالكتابة ، وأنت
بحمد الله تعرفها على الاقل خيراً من معرفة الكلام ، فاذا تكلم
أحد فاكتب ولا تعتمد على الذاكرة بعد الآن

وحضرت الى المنزل فسألته : هل من أحد تكلم ؟

قال : نعم . تكلم أربعة

قلت . وهل كتبهم عند ما تكلموا ؟

فقال لى نعم ، وأحضر لى الورقة فاذا فيها البيان الشافى على
هذا النحو الوجيز . إذ ليس فيها إلا هذه السطور الأربعة
سطرا فوق سطر وهى :

أحد تكلم

أحد تكلم

أحد تكلم

أحد تكلم ...

ولما تنازعنى الغيظ والضحك من هذا البيان الذى لا بيان
فيه ، وهذه الكتابة التى خير منها الكلام وخير منها النسيان
بدأ عليه العجب والاحتجاج ، وعلمت أننى المخطئ . لا الشيخ
احمد المعصوم من الخطأ على طريقته العكسية الواضحة . فاتى
حين أقول للشيخ احمد . « إذا تكلم أحد فاكتب ... » فليس

ينبغي لي أن أنتظر غير ما فعل ، فقد تكلم أحد فقال أحد تكلم
وأعاد الكرة كلما عادت الكرة . فأين الخطأ وأين المخالفة
يامنصفون ؟ .

هذه أمثلة يعرف أخواننا الذين خبروا الشيخ احمد نظائر
من طرازها البديع ، والظريف في أمره بعد ذلك أنه جاءني يوماً
يستأذن في « أجازة » شهر للسفر الى البلد على غير عادة
فسألته . وفيم هذا السفر الغريب ؟

قال : يا أستاذ أنهم يوزعون الآن تعويضات الخزان .
وأقاربى وأهل البلد يخشون الغبن وخطأ الحساب ، فأرسلوا
يستقدموني ويلحون على في شهود التوزيع
قلت . ومن لها غيرك يا شيخ احمد ؟ سافر على بركة الله ..
كان الله في عون البلد الذي أنت هاديه وألبق من فيه .

والشيخ احمد كما علم القارىء ليس بسبجان ولا موظف في
السجن ولا زميل فيه ، فما الذى زج به في هذا المأزق المكروه ؟
الذى زج به فيه أننا تركنا له البيت وحده أنا وأخى يوم
كنا كلنا معتقلين ، وقد ظل عمدة الوحيد في كل ماله علاقه
بتدبير شيء في المنزل ، أو إحضار شيء منه حتى انتهت الشهور

التسعة ... ولا حاجة بي الى أن أقول انه لم يقلع خلاطها عن ذكائه
البارع ولا عن تزويدنا بالأعاجيب من « وحائده » وأفانينه
فقد استطاع الشيخ احمد بذكائه الثاقب وتجربته السنين
الطويلة أن يعلم أنني أتناول الغداء نحو الساعة الثانية ولا أغير
هذا الموعد إلا لسبب عارض ، ولكنه لم يستطع أن يعلم أن
مواعيد السجن غير مواعيد البيت ، ولم يستطع أن يصدق
السجانين حين قالوا له إن الساعة الثانية عشرة هي موعد الغداء
عندهم ، لأنه لا يصدق إلا ما يسمعه من الأستاذ

وتعبوا في إقناعه بغير جدوى ، وعالجوا إفهامه أن « العنبر »
يقفل عند الظهيرة وأن الموظفين المنوط بهم رقابة السجن
ينصرفون في هذه الساعة ، وهو لا يفهم ولا يزيدهم على أن
يقول : « إن الأستاذ لم يتناول غداءه قط في الساعة الثانية عشرة
وقولوا ماشئتم فأنا لا أصدق لكم كلاماً حتى أسمع من لسانه »
وهذهات ذلك إلا باذن وموعد زيارة وكتابات وردود

وكان السجانون قد عرفوا الشيخ احمد وخبروا منهاجه في
فهم الأمور ، فولعوا بعناده واستثارت ، وأنذروه يوماً لأن لم
يجضر غداً قبل الساعة الثانية عشرة ليدخله السجن ولا يخرج
منه بعد ذلك أبداً

ولم يحفل الشيخ أحمد بوعيدهم ولم يتقدم لحظة عن الموعد الذى اختاره لحضوره . فلما دق الباب كان السجنانون على أهبة القبض عليه ، واتفق ثلاثة منهم على استدراجه وجذبه إلى داخل الباب ، فأخذوا يديه وشدوا عليه وهو يستعيز بالله ويقاوم بقوة الجبارين وقوة الخائفين ثلاثة رجال ليسوا بالضعاف ولا بالهينين .

والشيخ أحمد لا يعلم أن دخول السجن إنما يكون بتحقيق وأمر بالقبض أو حكم من القضاء وإثبات فى الأوراق والسجلات ، بل كل ما يعلمه أن من جاوز عتبة البناء المرهوب فهو مسجون لا فكاك له حتى يشاء السجنان !

فماذا ينتظر ؟ أينتنظر حتى يتغلب عليه هؤلاء الظلمة العتاة ويوقعوه فى الفخ الذى ليس بينه وبينه إلا شبر واحد أو شبران اثنان ؟

لا وحق الأولياء . ومشايخ الطرق أجمعين ! لقد حصلت بركتهم ونفخوا فى عضلات مريدهم وربيهم حتى حار السجنانون من أين له كل هذه القوة التى دافعهم بها مجتمعين . فلم يستطيعوا أن يزحزحوه شبراً أو شبرين ، وأفلتوا وقد غلبوا ضحكاً ،

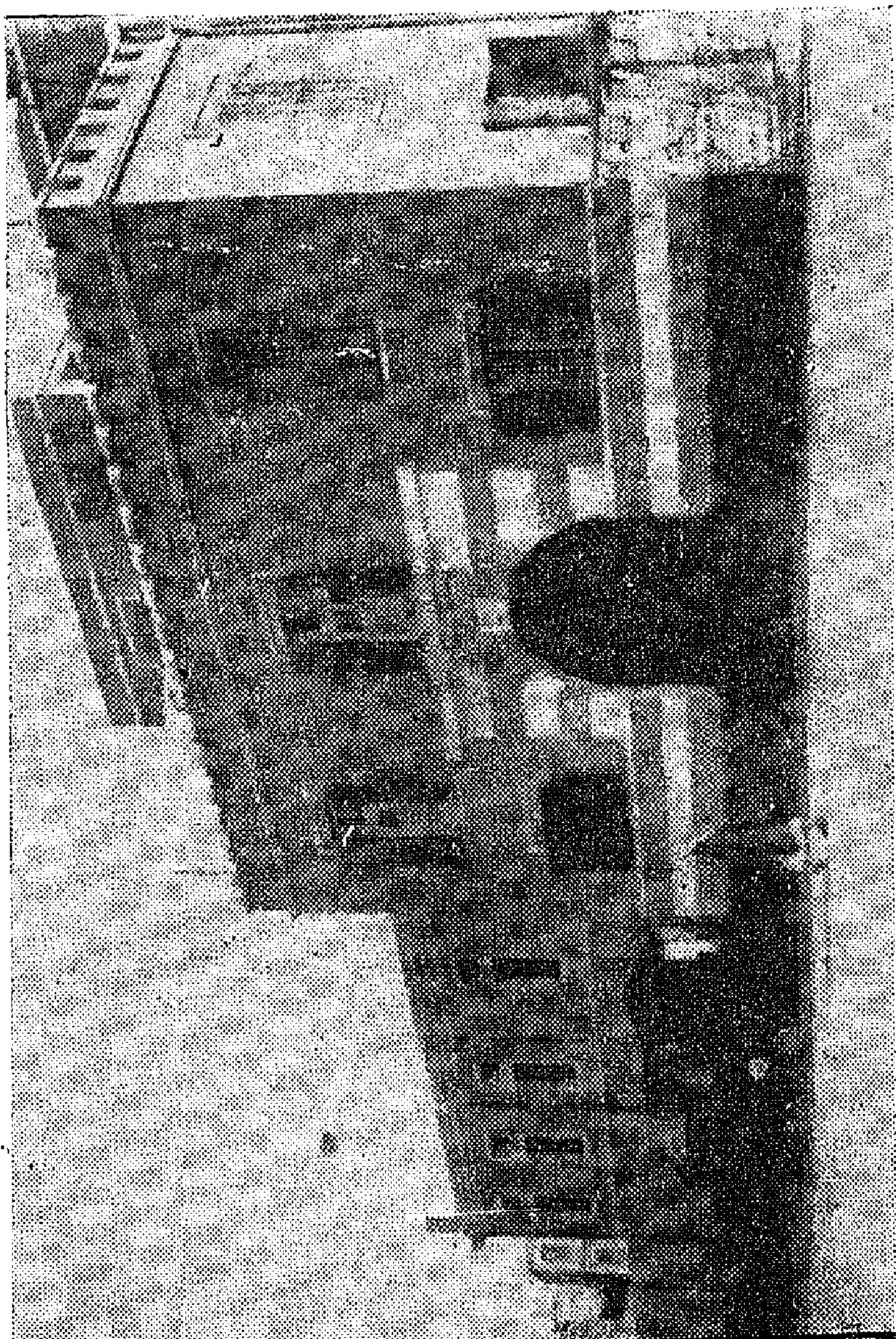
فانطلق كالسهم في ميدان القلعة لا يلوى على شيء ولا يصدق
بالسلامة !

ولكن هل عدل عن الموعد وأقلع عن العناد ؟

معاذ الله ومعاذ الذكاء . . . لم يعدل ولم يقلع ولم يزد على أن
يدق الباب في الأيام التالية ويضع الأنيّة على مقربة منه ، ثم
يرجع هو إلى حيث يضمن النجاة ويأمن الظلمة العتاة ! ولم يزل
كذلك حتى بلغه عن مصداق ما يقول السجانون

وعلى هذا جرى في إحضار الملابس لموعد الحمام ، فهو
لا يحضرها إلا أيام الحمام في البيت ، ولا شأن له بما يقولون عن
مواعيدهم ومواعيد البخار الذي لا يدار في أيام الجمع ولا يختلف
عن الأوقات المرتبة له على حسب الحاجة إليه ، وظل على عناده
حتى أبلغته مواعيد الاستحمام كما أبلغته مواعيد الطعام

ولا تسل عن المشقة في تعريف الشيخ أحمد بالملابس اللازمة
حين يدعو الأمر إلى التدرج من الملابس الثقيلة إلى الملابس
الخفيفة بين الفصول ، فالتفرقة بين القميص الصوفي الأحمر
والبرتقالي والرمادي عنده من المشكلات المعضلات ، وهو مع ذلك
لا يتورع عن طلاء ما يلقاه من تمثال أو صورة عندي بالألوان التي
تروقه كلما تقشرت طبقة منها واحتاجت إلى طلاء . . . فتلك فنون



مدخل سجن مصر

لا يحجم عنها الشيخ أحمد ولا ينتظر إذنى فى عملها ، ولا يحتفل
بالتفكير فيها أقل احتفال ، وإذا ضحك أصدقائى الفنانون صانعو
تلك الصور أو تلك التماثيل من فنه فى التلوين والتظليل فماذا
يعنيه من ضحك الناس المفرمين بالضحك من كل شيء ؟ لقد
تعود منهم أن يضحكوا حين يصنع الشيء وحين يصنع نقيضه ،
فليضحكوا ما بدا لهم ماداموا لا يقطبون ولا يغضبون

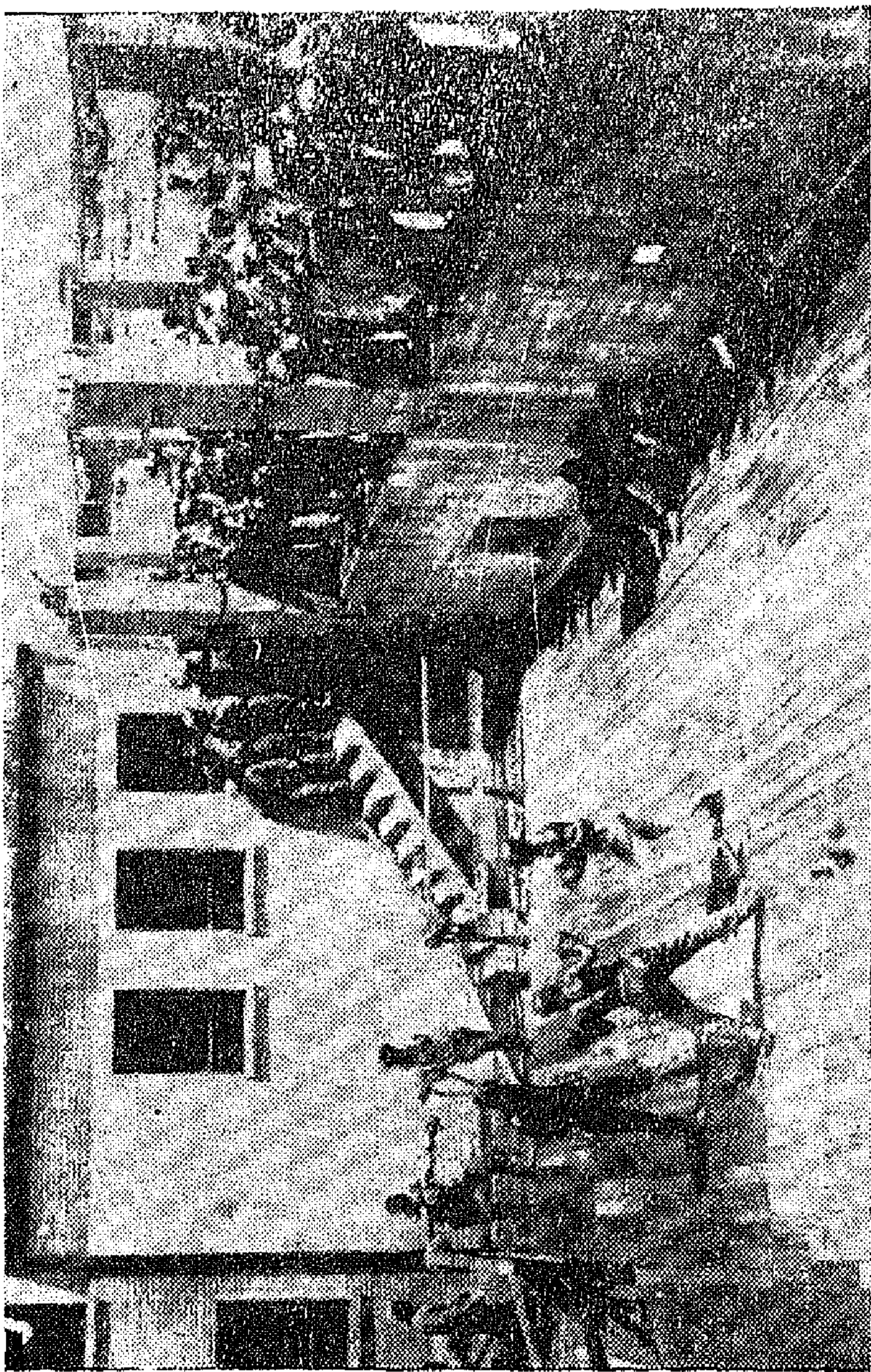
لكن بدائع الشيخ أحمد ليست كلها مضحكة ولا كلها سليمة ،
فربما كان منها ما يميت وما يغيظ . وقد جاد علينا بواحدة من
هذه البدائع القاتلة فى السجن ثم اكتفى بها ولم يشفعها بثانية ،
ولله الحمد

فأنا أتداوى من عوارض البرد بالماء الساخن أنغمس فيه
بضع دقائق ثم أسرع إلى لبس البرنس فى الصيف أو البرنسين
معاً فى الشتاء بغير وئاء ، فإذا أبطأت ساءت العاقبة وجنيت جريرة
هذا الإبطاء زكماً قد يلازمى الأسابيع ، وقد يتجاوز الزكام إلى
ما هو أشد وأقسى

فلما كان يوم من أيام الحمام خرجت من الحوض الساخن
والتمست البرنسين والملابس فإذا الشيخ أحمد قد نسى أن يصلح
بعض أكمامها وتركها مقلوبة تارة ومعدولة تارة أخرى ، وهذه

هفوة صغيرة ولكنها كافية .. لا نى شعرت بالقشعريرة تسرى
فى أوصال جسمى ورعدة البرد تملأنى ، فأسرعت إلى الحوض
الساخن مرة ثانية حتى عاودنى الدفء وشملتنى الحرارة ، ولكن
الوقت الذى قضيته فى الحوض كان أطول مما يطاق ، فلم ألبث
أن خرجت منه حتى غشيتنى الإغماء ، ولو أدركنى فى الماء قبيل
ذلك بلهة عين لكانت هى القاضية

وإن نسية من هذه النسيات التى يتقنها الشيخ أحمد لكافية
لتوديعه مدى الحياة ، لولا أمانة عزيزة تشفع له وإخلاص وثيق
يزكيه ، وطول خدمة مذكورة تكافى. هذه النسيات



ساحة الملاكمة في بعض سجون أمريكا

التسليّة في السجن

لوتمت « تعليقات » السجن بحرفها في معاملتنا نحن المحكوم علينا في قضايا النشر والصحافة ، لكان معنى ذلك أتى قضيت تسعة شهور صامتاً لا أنبس بكلمة واحدة ، إلا أن تكون هذه الكلمة سؤالاً أو جواباً لموظف من موظفي السجن في عمل من أعماله الرسمية ثم ألوذ بالصمت «البوذى» الطويل عا كفاً عليه ليلي ونهارى بلا صلاة ولا قربان !

لأن إدارة السجن أوصدت على كل مسجون في قضية صحفية أو قضية من قضايا النشر باب حجرة منفردة

وأمرت أن ينفرد كل منا في أوقات الرياضة فلا تتلاقى بمكان واحد ، ولا يمر أحد منا على حجرة الآخر

بل أمرت أن يكون ذهاب كل منا إلى المستشفى لمقابلة الطبيب أو اللجنة الطبية في موعد غير موعد زملائه

وعلى هذا كنا في «سجن انفرادى» كالذى يعاقبون به السجناء الأشقياء ، ونحن لا ندرى ولا إدارة السجن تدرى . وكنا أسوأ حالاً من شرار المجرمين لأنهم يجتمعون في ساعة الرياضة عشرات عشرات ، ويجتمعون في المصنع بضع ساعات ، ويجتمعون في حجرة النوم خمسة خمسة أو عشرة عشرة أو عشرين عشرين حسب اتساع الحجرات

وهذه نقيضة أخرى من نقائص السجن وأعاجيبه ، وهو
كمصر في رأى هيرودوت موطن النقائص والأعاجيب
ومهما يكن من زهادة الانسان في اللغو والكلام ، وفي
إخلاده إلى العزلة والسكون فليس السكوت تسعة شهور بالأمر
المعقول ولا بالأمر الهين . . . وأى سكوت ؟ إنه السكوت لغير
عبادة يتعزى العابد بسلامها وثوابها ، وأنه السكوت مع الفراغ
من العمل ، ومن النظر إلى الدنيا ، ومن ضروب السلوة جميعها
إلا القراءة ومراقبة النمل على الجدران !

لقد كنا نرى بعض المحبوسين من الموسرين القادرين على
استئجار الحجرات المفروشة أثناء التحقيق يهجرون تلك
الحجرات لانفرادها وعزلتها ، ليشاركوا مع غيرهم في حجرة
واحدة ينامون فيها على الأرض بغير فراش إلا الحصير من الليف
الخشن ، ويعملون بأيديهم في تنظيف الأرض وغسل الأنية كل
صباح ويؤثرون ذلك على السرير وحشايا القطن ، والراحة من
الخدمة وامتهان النفس في الغسل والتنظيف ، لأنهم يستطيعون
الكلام هنا بغير عقوبة ، ولكنهم يعاقبون اذا سمعهم الحارس
يكلمون جاراً لهم من النافذه أو فتحات الباب حين ينفردون في
حجرة معزولة

وقد كنت أنا من المشهود لهم «بحسن السير والسلوك» عند
السجانين ورؤسائهم الموقرين ؟ لآتني كنت لا أهتم بفتح باب
الحجرة ، ولا أسعى للتحدث الى أحد ، ولا أحاول الخروج أو
المرور من غير مكانى المألوف ، ومع هذا تخطىء إدارة السجن اذا هى
ظنت أننى أستحق شهادتها بحسن السير والسلوك كل الاستحقاق .
فلو أننى حوسبت بالعدل والقسطاس المستقيم فى عرف النظام
الآعوج ، لخسرت كثيراً من الدرجات فى تلك الشهادة
فالحق أننا نتكلم وتلاقى وتتسامع الأخبار على قصد
وعلى غير قصد ، وإن كان ذلك كله فلتات لا تخفف من قيود
« السجن الانفرادى » المفروض علينا إلا بمقدار يسير
أما شرار المجرمين فقد كان مباحاً لهم كل ما هو محرم علينا ...
فما هو إلا أن توصل عليهم الأبواب نهراً ، حتى يتجمعوا للعب
بـ « الحجارة » الدومينة أو بـ « الحجارة النرد » أو ما شاءوا من الألعاب
وضروب التسلية . وقد يسأل سائل : « ومن أين لهم حجارة
النرد أو الدومينة ؟ أتراهم يهربونها من خارج السجن كما يهربون
التبغ والنقود ؟ » ألا فليعلم هذا السائل اذن أنه يسىء الظن
بـ « براءة السجناء » ، فانهم قد برعوا فى صناعة هذه الحجارة داخل
السجن حتى صنعوها من لباب الخبز الساخن وهم فى حاجة اليه

فأثبتوا بذلك أنهم يعرفون كيف يجدّون إذا هموا باللعب أو مخالفة النظام ، وأثبتوا بذلك أيضاً أن اللعب أحب إلى الإنسان من الطعام

وليس يحلو اللعب للسجناء بغير رهان . فإذا كان نقد أو تبغ أو طعام ممنوع فذاك هو الرهان المفضل على هذا الترتيب ، وأن لم يكن واحد منها فلا رهان بعد هذه المتعة المشتهاة أحلى وأشهى من الضرب الوجيع والمباينة في الإجماع اظهاراً للقوة والتداذاً بالسطوة ، وربما كانت لذة الضرب الكبرى عند السجين أنه يمنحه القدرة على التغلب والتعذيب وتوقيع العقاب ، في مكان لا يزال فيه مغلوباً معذباً خاضعاً للعقاب .

أما الليل فالظلام يحول دون اللعب بالنرد والدومينة ، ولكنه لا يحول دون اللفظ والغناء والعريضة وكل ما يحولسكان الحجرة ماداموا في أمان من أعين الحراس وآذانهم ، وهم على الأكثر في أمان !

وكانت تسليتي بالليل قبل أن تسمح إدارة السجن بادخال النور الكهربائي إلى حجرتي أن أستمع إلى لفظ اللاغطين حتى يهدأ : فأسمع مصارحات السجناء بأسرار حوادثهم ومراوغاتهم تارة ، وأسمعهم يمثلون روايات التهريب وإخفاء

الممنوعات تارة أخرى ، وربما كان من هذه الروايات المضحك والفاجع والمقزز والمثير للسخط والنقمة ، وربما كان منها ما يستمر ليلة كاملة ويشترك في تمثيله حجرات ثلاث بعضها فوق بعض ، وكل منها في دور مختلف من أدوار العنبر . وأصلح هذه الروايات للتمثيل فيما أذكر رواية اشترك فيها أربعة أطفال ، ومهرب كبير من عتاة المجرمين ، وسجين من سجناء المحاكم المختلطة . فأما الأطفال — وهكذا يسمونهم في السجن وإن بلغوا الثامنة عشرة — فكانوا في الدور السادس أى الدور الأوسط ، وأما المهرب فكان في الدور السابع وهو أعلى من السادس ، وأما سجين المحكمة المختلطة فكان إلى جانبي في الدور الأرضي أى الدور الخامس الممتاز بالأطعمة الخاصة وشئ من التيسير في المعيشة .

وبدأت الرواية باتفاق بين المهرب والأطفال من جهة ، وبين الأطفال وسجين المحكمة المختلطة من جهة أخرى ، وغوى الاتفاق أن يدلى الأطفال بخيط من خيوط الصوف التي ينزعونها من غطاءهم أحيانا لتوصيل الرسائل والمهربات ، فيربط فيه السجين في الدور الأرضي صرة صغيرة تحتوى قطعتين من ذوات القرشين وقليلًا من الحلوى ، وعندما تصل هذه الصرة إلى الأطفال ينادون المهرب فيسقط إليهم خيطاً قد ربط فيه

الصرة التى تحتوى لفائف التبغ المطلوبة ، وإنما وثق الطرفان بأمانة الاطفال فى هذه الرسالة لأنهم اطفال مخلصون لا يعرفون الخباثة ، ولا بد من توسيطهم بين البائع والشارى على كل حال لأنهم متوسطون بينهما بحكم المكان الذى لا يتحول . فاطمان البائع والشارى الى الصفقة وبات كل منهما يبنى نفسه بليلة سعيدة : فالبايع يتلمظ شوقاً الى الحلوى ويترب ثمن البضاعة التى يعانى ما يعانى فى سبيل تهريبها وخفائها ، والشارى يحلم بالتدخين ويعد الانفاس فى انتظار أنفاسه الهنيئة ، أما بقية الممثلين فى الرواية — وهم الاطفال — فلم يكونوا عند حسن الظن أو عند سوء الظن بهم فهما فى هذه الحالة سواء ، ولكنهم أضرروا النية على شىء آخر وقرروا فيما بينهم أن ينوبوا عن الطرفين البائع والشارى فى الاستمتاع بالتدخين والحلوى والقروش جميعاً . . . وهكذا كان .

فلما أسقطوا الخيط إلى سجين المحكمة المختلطة المجاور لى لم يقصر الرجل فى ربط الصرة ، وهمس لهم أن يرفعوها فرفعوها وهم يغالبون الضحك ، والرجل لا يستريب بضحكهم ولا يرى فيه إلا أنه من مرح الاطفال حين يلهون بأمثال هذه الالاعيب . . . ثم لبث الاطفال يضحكون هنية وانتظروا ريثما يتحققون من محصول الصرة ويطمئنون إلى نجاح الحيلة من ناحية الشارى ،

ثم نادوا المهرب فما توانى دون أن أجاوب على الفور بأسقاط
الحبل وفيه البضاعة النفيسة ، ثم مضت لحظة . كنت أسمع في
خلالها همس الاطفال وضحكاتهم المنخوقة وشجارهم الأخوى
على تقسيم الغنيمة فيما يظهر ، فلما لم تصل اللقائف إلى سجين
المحكمة المختلطة ولم تصل القروش والحلوى إلى المهرب ، ناديا
على الاطفال في وقت واحد وهما حذران متوجسان ، ولم يخطر
لهما أول وهلة أنهم قد غدروا بهما ، وإنما خطر لكل منهما أن
يرتاب في صاحبه ويسأله على الرغم مما في رفع الصوت من
المجازفة والتعرض للعقوبة والمصادرة ، فاذا بكل منهما يقسم
أغلظ الأيمان على بره بوعده ويحرق الارم غيظا من أولئك
الصبية الملاعين ، وأكدهما الصدق فيما يقولان سكوت الصبية
الملاعين وانفجارهم بالضحك كلما غلبهم وأعياهم أن يغالبوه ،
وانقلب النداء شتما ووعيدا والخافا شديدا . ولا فائدة لكل
أولئك ولا جواب غير الهمس بالضحك المنخوق فالقهقهة الداوية
من حين إلى حين ، فلم يبق للرجلين إلا أن يتجرعا غصة اليأس
ويستغيضا الله فيما كانا يحلبان به من لذة وهناة ، وسكتا وهما
كظيمان مقهوران .

لكن الرواية لم تنته عند هذه النهاية ، وإنما انقضت فترة

فضاها الأطفال في سرور وفرح بالغنيمة ونجاح الألعاب ، ثم
انبعث صوت جاد أو متكلف للجد من حجرتهم ينادى المهرب
مرة بعد مرة ، تخف المهرب الى الجواب ، ووثب الى النافذة كأنه
حسب أنهم ندموا على غدرهم وفكروا في رد الأمانة اليه . فقال
متودداً : « ما بالك يا فلان ؟ لم كنت لا تجيب ؟ » فضحك الغلام
الخبيث وقال : « كنت نائماً » . فارسل المهرب عليه عشرات
من التحيات لأبيه وأمه وصاح به : « أو تنام في غمضة عين ؟
ومن ذا الذي كان يضحك ويققه منذ هنيهة ؟ » ثم أخذ في
ملاطفته وعاد يسأله : « ماذا تريد ؟ هل أسقط لك الخيط ؟
قال الغلام الخبيث : « نعم .. وتسقط معه عينا » أي كبريتا
باصطلاح السجناء ... فادرك المهرب أنهم يعشون به ويكايدهونه
وقد كانوا حقاً يكايدهونه ويبالغون في المكايده ، لأنهم كانوا قد
دخنوا اللقائف جميعاً ، وأشعلوها بالشرار الذي ينقدح في خيط
الصوف من ضرب الأرض بصفحة الرقم المعروفة هناك
« بالدوسيه » . فلم تكن بهم حاجة الى الكبريت ولا حاجة إلى
النداء على المهرب من أجله ، ولكنهم حرصوا على الاستمتاع
باللعبة الى آخرها ، وتركوا صاحبهم يفرغ ما عنده من السباب
والتهديد ، وهم يمزحون ويمزحون .

وتلك رواية من روايات التهريب التامة لم يقاطعها أحد دون تمامها الى الفصل الأخير منها كما يحدث أحياناً في أمثالها ، ومسرح السجن غير ضنين بأشتات من هذه الروايات التي نشهدها نحن ليلة ويشهدها غيرنا ليلة أخرى ، ولكنها لا تنقطع عن شهودها المتفرقين في معظم لياليه .

وتيسرت لي القراءة طرفاً من الليل بعد دخول النور في الحجرة فكنت اقرأ حتى أمل الصفحات فألهو بمراقبة النمل على الجدران ويطيب لي هذا النوع من اللهو لآتي استأنف به أياماً من الطفولة كنت أقضيها في هذه المراقبة . وأكاد أصدق يومئذ أنني أعالج ضرباً من الطلاسمة التي كان يعرفها سليمان عليه السلام وذلك أن تلميذاً من أصحابنا في المدرسة كان يقول لنا إنه يحفظ قسماً يتلوه على النمل ويرسم له خطاً فلا يتعداه . . . ومن عصى القسم وحاول تعدية سقط وحطت به لعنة سليمان واحتلنا على صاحبنا التلميذ حتى باع لنا بذلك القسم ، فإذا هو آيات يكررها القائل ثلاث مرات وهو متوضي . فتحصل المعجزة . . . وقد رأيناها فعلاً يحز للنمل خطاً على الحائط ويتلو القسم فيرجع النمل عن الخط أو يسقط دونه ،

وجربنا نحن القسم فصحت التجربة ، وأيقنا برهة أننا نملك سرّاً
من أسرار السحر المتصرف في خلق من خلائق الله . حتى خطر
لنا يوماً أن نرسم الخط ولا نتلو القسم ، فما راعنا إلا أن تصح
التجربة بغير تلاوة كما صحت بالوضوء والتلاوة ، فعرفنا السر
ولكننا أسفنا على السحر الذي فقدناه !

ومن ذلك اليوم ونحن نمتحن النمل بالخطوط لنعرف كيف
« يفكر » في اجتياز العقبات واللف حول الدوائر والمربعات ،
وكنا نحيطه بدائرة مفتوحة ودائرة ثانية مفتوحة من جانب آخر
ونحيط الدائرة الثانية بدائرة ثالثة لا فتحة فيها ، ونراقب كيف
يهتدى الى الفتحات في خروجه حتى يصل الى الدائرة الكبيرة
وكيف يهتدى الى هذه الفتحات بعينها حين يرتد عن الدائرة
المقفلة ، ونكرر هذه التجربة عشرات المرات ، فلا نرى نملة
واحدة « تفكر » في الرجوع الى طريق الفتحة التي تركتها منذ
هنيئة ، فانتهى بنا الأمر الى أن فقدنا إعجابنا بذلك النمل الموصوف
كما فقدنا السحر أو الوهم الذي سلطنا على هذه المخلوقات ...
وساءنا أن نعلم أن هذه المخلوقات الموصوفة بالذكاء إنما تعمل بغير
« تفكير » ! كأنها من الادميين !

وكانت التسلية بمراقبة الادميين ميسرة كالتسلية بمراقبة النمل
على الجدران ، ولكن أين هم الادميون الذين يستحقون المراقبة
داخل السجون ؟

إنهم أرقام كما وسمتهم ادارة السجن ولم تظلمهم كثيراً في هذه
السمة ... فقد يمر بك المئات بعد المئات من تلك الأرقام دون أن
يبرز من بينها رقم واحد بشخصية إنسانية وملاح نفسية ، لأن
« التفاهة » لعنة غالبية على مجرمى « سجن مصر » إلا النادر الذى
لا يقاس عليه ، ومن كان منهم ذا « شخصية وملاح نفسية »
فالأغلب أن يجيئه ذلك من طريق الجنون أو الشذوذ النافر ،
خلافًا لسجناء طرة وأبى زعل الذين يجتازون بسجن مصر في
انتظار الافراج بعد زمن قليل ، فان « الشخصيات » بين أصحاب
الجرائم الكبيرة أكثر عدا من « شخصيات » السرقة الخسيسة
والعدوان الوضع ، وقد رأيت من هؤلاء وهؤلاء نماذج قليلة
سأرجع الى الكلام عنها فى بعض هذه الفصول

على أن الانسان يراقب الناس كما يراقب جميع الأشياء داخل
السجن وهو « بنصف نفس » كما نقول فى أحداثنا العادية ، أو
يراقبهم وهو ينوى التأجيل كمن يدخر الزاد المستطاب
لساعة فى المستقبل غير الساعة التى هو فيها ، فينظر اليهم وكأنما

بينه وبينهم مسافة أشهر وأيام ، ويمتلىء بالمشاهد والتجارب وكأنه
الجمال في الصحراء يختزن الماء في جوفه حتى يشربه مرة أخرى
الشرب الذي ينتفع به ويشعر بره ، وربما ازدحم وعيه الباطن
بالتجارب كأقوى وأثبت ما تكون التجربة ، ولكن وعيه
الظاهر لن يبرح كالجاهل أو المتجاهل الذي لم يسمع إلا بنصف
الخبر ولم يشارف التجربة إلا من مسافة قصية

الزيارة أو برج بابل

كان التعجب صعباً على آبائنا الأولين على ما يظهر ، لأنهم
حصروا عجائب هذه الدنيا في سبع لا أكثر ، وحسبوا من
هذه العجائب « برج بابل » الذي كان سكانه لا يتفاهمون لأنهم
يتكلمون بلغات كثيرة

وكل بيت على الأرض هو « برج بابل » عجيب يأوى
الناس منه إلى مكان واحد ، ولا يتفاهمون فيما بينهم وان
تكلموا بلغة واحدة . لأنهم يفترقون في ألوان الحياة أبعد
ما يختلف إنسان من إنسان : بين امرأة ورجل ، وشيخ وطفل ،
ومهموم ولاعب ، وقديم وحديث ، ولا توجد أسباب
للافتراق بين عقل وعقل وشعور وشعور أبعد ولا أوسع من
هذه الأسباب التي تجتمع في بيت واحد

. كل بيت هو « برج بابل » لا يحتاج الى أكثر من « قاموس
واحد » ليصبح أعجوبة من تلك الأعاجيب التي أحصاها
آباؤنا الأقدمون على أصابع يد واحدة وأصبعين اثنين من اليد
الثانية !

ولكني أحسب أن برج بابل يحتاج الى صورة هزلية تمثله
كما تمثل بعض الناس في الصور الهزلية بأنف أطول من أنوفهم

الطويلة ، أو رجل أقصر من أرجلهم القصيرة ، كلما تعمدا
المبالغة التي تعيننا على إبراز الحقيقة
ولا أحسب أن فنانا يجد للبرج الدائر صورة هزلية
أظرف وأصدق من ذلك المكان المعروف في كل سجن بقفص
« الزيارة »

لأنه المكان الذي يتكلم فيه الناس بلغة واحدة
ويتكلمون بأعلى ما في وسعهم من زعيق وصريح
وتصغى إليهم على مسافة ثلاثة أشبار فلا تفهم ما تسمع
ولا هم يفهمون ما يسمعون

وثق أنهم لا يتكلمون في الفلسفة ، وما أنت في ذلك بحاجة
إلى تأكيد

وثق أنهم لا يصطنعون الألفاظ والمعميات في التعبير كما
يصطنعها المتخاطبون أحيانا بالأصفار والرموز
ولكنهم يتكلمون في أبسط الأمور ، ويجتهدون غاية الجهد
في التوضيح والانصات

ومع ذلك كله لا يفاهمون بالكلمات كما يفاهمون بالظنون
والاشارات

وإذا شاء لك حسن الحظ. — أو سوء الحظ — مرة واحدة

أن تشهد قفص الزيارة عرفت سر هذه العجيبة ، وعرفت أنها كسائر الأسرار من أبسط الأشياء ، لأنها الشيء الذي لا يكون غيره ، وهكذا ينبغي أن يكون

أربعة أقفاص يقابلها من الجانب الآخر أربعة أقفاص مثلها على مسافة أشبار ، وفي كل قفص رجل أو اثنان أو ثلاثة ، وأمامهم جميعاً دقائق معدودات يقولون فيها كل ما أعدوه للقول في شهور أو أسابيع ، ويجب كل منهم أن يقول كل ما عنده وأن يسبق الآخر إلى إفراغ ما في جعبته ، ويتواصى كل منهم قبل دخوله إلى القفص أن يخفض صوته ولا يخطى على صوت جاره ولكنهم لا يبدأون حتى يختاط بينهم الكلام وتأخذهم العجلة فإذا هم من حيث لا يشعرون قد اتقلوا من الهمس إلى زعيق المصايين بالصمم المخلق ، وإذا بالسامع من وراء الجدار يسمع سؤالاً عن الزرع وجواباً عن السوق وكلمة عن الأبناء والبنات وكلمة عن الماشية والأنعام ، ولا يدرى ماذا جواب ماذا ولا هم يدرون من السائل ومن المجيب ، إلا أن يرى المتحدثين رأى العين فيفهم بالظن من ملاحظهم وإشاراتهم ما يتخاذل دونه الكلام... أو أكثر الكلام

وهذه هي الزيارة التي يتشوف إليها المسجون ويحسب

دوره فيها باليوم والساعة ، لا لأنه يسمع ولكن لأنه يرى ،
ولا لأنه يعنى كثيراً بمن يراه ولكن لأنه ينفذ بهذه الرؤية
إلى العالم الخارجى ولو بعض النفاذ

وعلى هذا الشوق من المسجونين إلى أيام الزيارات لا تجد
« مصلحة السجون » سريعة إلى شيء كسرعتها إلى انتحال
الأعذار لإلغاء الزيارات عامة بحجة المرض تارة وبحجة الوباء تارة.
أخرى ... فما هو إلا أن يشاع أن مرضاً معدياً ظهر فى ناحية من
أنحاء القطر حتى ينتهى خبر هذه الاشاعة إلى كل مسجون فى كل
زاوية من زوايا السجون ، لأنه يصغى إلى « برج بابل » فلا
يسمع فيه لغطاً ولا ركزاً ، وما حاجته بعد ذلك إلى مطالعة
الصحف ونشرات الأطباء !

قال لى مسجون من مدمنى المخدرات حجبوه فى اللحظة
الآخيرة عن زيارة كان يتوقعها منذ أسابيع : اتى يوم ساقونى
إلى السجن كان فى بيتى اثنان مريضان بالحمى فلماذا لم
يغلقوا فى وجهى باب السجن ذلك اليوم ؟

قلت : انه لمنطق سليم ! فان الحيات والأمراض وأوبئة العالم
بأسره لن تحجب عن أبواب السجن هذا المدد الذى يتدفق كل
يوم من خضم المجتمع الواسع ، ولكن للمتهمين والجناة على

ما يبدو من هذه التفرقة في المعاملة « خاطراً » عند مصلحة
السجون ليس للزوار الأبرياء
وفي حساب بعض السجناء أن « الزيارة » قيراط إذا كان
الافراج أربعة وعشرين
قال بعضهم لواحد من أولئك السجناء الذين فجعتهم مصلحة
السجون في بعض هذه القرارات : لا تعلم « المصلحة » هذا
الحساب فتعطيك أربعاً وعشرين زيارة و « تأكل عليك »
الافراج ١٩

الطعام ومطالب الجسد

أيسر تجربة للمسائل العامة خليقة أن تؤكد لنا صحة هذه الحقيقة الماثورة ، وهي أن المبدأ لذاته ليس بالمهم ؛ أو ليس بالشئ الذى يستحق الجانب الأكبر من الاهتمام والدراسة ، وإنما المهم قبل كل مهم هو تطبيق المبادئ وتنفيذها ، فإن التطبيق فى أيدي المصلحين قد يصلح المبادئ الفاسدة ويقوم أعوجاجها ، كما أنه قد يفسد المبادئ الصالحة ويعكس مقاصدها إذا هو جرى على أيدي العجزة وأهل الفساد

فليس الإصلاح اذن منوطا بالقاعدة والنظام وإنما هو منوط بضمان التطبيق ، وحسن الرقابة على التنفيذ

وهذه الحقيقة تسرى على مسألة الطعام فى السجون أشد من سريانها على مسائل الدواوين الأخرى ، لأن الاغراء حاضر والشكوى عسيرة وتحقيقها أعسر ، وخوف السجناء من الشهادة الجريئة خوف غير مستغرب من أناس مهددين بملوكين فى قبضة الحراس والرقباء ، موسومين بالكذب والخداع عند المشرفين عليهم والملوكين بشؤونهم ، موصوفين بضعف الخلق ، وضعف النخوة ، وضعف الغيرة على الحق ، وضعف الابانة عنه ، فاذا هم أحدهم بالشكاية ثناه ضعفه فأحجم ، واذا ألح عليه الضيم فأقدم بعد وجل وتردد لم يستطع الافصاح ولا إقامة الدليل

ولم يجد من العطف والتشجيع ما يغنيه عن حسن البيان وقدرة
الاثبات ، وقد يخله زملاؤه طلبا للسلامة وإيثاراً للزلفى
ومرضاة الحراس والرقباء ، فالحاجة الى مراقبة التنفيذ فى مثل
هذه الأحوال أشد وألزم ، والثقة بالمبادئ والنظم أقل ثقة تعهد
فى مبدأ أو نظام

ولو سئلت رأى فى تعديل طعام السجن من حيث المبدأ
والنظام لما اقترحت من التعديل غير القليل : زيادة جزء من المواد
السكرية وجزء من الفاكهة والسماح فى الشتاء بالمشروبات الساخنة ،
وما عدا ذلك فهو غذاء صالح كما هو قائم الآن ، لأنه يقوم على
البقول عامة الأسبوع ، والخضر النيئة مرتين فى الأسبوع ،
وتستبدل الخضر المطبوخة مع اللحم بالبقول مرة أو مرتين
على أقصى تقدير ، وهذا على قلته كاف لحاجة الجسم ناف للضرر
الذى يصيب الانسان من نقص بعض الأصناف

لكن الاهتمام جد الاهتمام انما يكون بالرقابة على تنفيذ
هذا النظام ، فان العدس قد يكون صحيحاً وقد يكون منهوكا
بالسوس ، والخضر النيئة قد تكون ذابلة هزيلة وقد تكون
ناضرة جزيلة ، واللحم قد يكون لحم حيوان شائع أعجف
سقيم ، وقد يكون لحم حيوان قتي فاره سليم ، والسمن قد يكون

مغشوشا مخلوطا وقد يكون من اللبن النقي الممتخوض ، والخبز
قد يصنع من الدقيق النظيف وقد يصنع من الدقيق المشوب
بالحصى والتراب ، والفرق كل الفرق ما بين عدس وعدس
وخضر وخضر ، ولحم ولحم ، وسمن وسمن ، وخبز وخبز ،
وإن كانت كلها فى العنوان سواء

فالرقابة هنا هى أس النظام ، والحذر من العبث والاهمال
هو أولى الأمور باليقظة والانتباه

كذلك المرضى المستحقون للبر والرحمة قد يصلون إلى
مكانهم من المستشفى بغير عناء ولا كلفة إذا حسنت الرقابة
واستقام الاشراف ، وقد يحرم هذا الحظ من هو أهله ويعطاه
من هو غير أهله إذا التوت الأمور واستفاض الخلل والاهمال

ومن الحق علىّ أن أقرر هنا أتى شكوت مرة من بعض
الخلل الخطير فلم ينقض يوم على الشكوى حتى أزيلت أسبابها
وخيل بين المسىء وما يسىء ، ومن الحق علىّ كذلك أن أشهد
لكثير من الأطباء والموظفين فى سجن مصر بالجد والأمانة
والإخلاص وبذل الوسع فى تخفيف الشقاء وتلطيف الآلام ،
فاذا قضيت هذا الحق وهو فرض لا أنساه فمن حق الضعفاء علىّ
أن لا أنسى حاجتهم إلى الرقابة الناجعة ، ولا أنسى سهولة

الاجحاف بهم والقسوة عليهم ، اذا آلت الأمور إلى غير القادرين
وغير المخلصين .

على أن مسألة الطعام في السجن — سواء صلح نظامه أو
افتقر إلى التعديل والتنقيح — مسألة لم تغب عن أذهان الحاكمين
ولم يغفلوا عن تقريرها بالمبدأ والقاعدة تارة وتعهدوا بالرقابة
والاستطلاع تارة أخرى ، ولكن العجيب كل العجب أنهم قد
غفلوا وتغافلوا جميعا في مصر وفي معظم بلاد العالم عن وظيفة
جسدية ليست في صميمها بأقل من وظيفة التغذية وقد ترجح
عليها بما لها من الأثر السريع في الأخلاق والآداب ، ونعني
بها وظيفة الغريزة الجنسية وحاجة الرجل إلى المرأة في الشهور
أو السنين الطوال التي يقضيها بمعزل عن النساء ، فهل في وسع
طبيب أن يحيز تعطيل هذه الوظيفة في جسد صحيح ميسور
الغذاء ؟ وهل في وسع حاكم أن يزعم أن السكوت عنها أو اسبال
الستار عليها كاف لإغائها وكفيل بمحوها وإخفائها ؟ وهل في
وسع الحاكم والطبيب أن يرضيا عن شذوذها وتحولها كما تشذ
وتتحول في مئات من الأحوال ينتهى خبرها إلى الحراس

والرقباء ، وفي ألوف من الأحوال لا ينتهى خبرها إليهم وإن كانت فى حكم المعلوم المفهوم ؟

ليس السجناء نساكا ولا رهبانا فيطالبوا بزهد النساك والرهبان ، وليس من الصلاح لهم أن يطالبوا بذلك وهم لا يؤمنون بنية الزهد ولا يستمرثون سلوى العفاف ، ولا يقصدون النسك ولا الرهبانية فمن أعجب الدلائل على كسل العقل الانسانى واعتياده أن يحل المشكلات بالاعراض والتغابى هذه الغفلة السادرة عن المسألة الجنسية فى السجنون ، وهى مشكلة لا تحل بالسكوت ولا تحل بالشذوذ ولا بد لها من حل ، وليس من يتصدى لحلها بين الرؤساء المسؤولين كأنما هى شىء غير موجود !

حدث فى بعض الليالى أن استيقظ السجن كله على ضجة هائلة لا يتميز منها صوت بين صليل عشرات من الجراذل والكيزان تتساقط على الأرض أو تصطدم بالجدران ، ويتخلل ذلك صياح المجروحين وعويل المضروبين وزجرة كزجرة الوحوش وضحك كضحك المخبولين ، ثم جاء ضابط السجن وفتح الحجرة التى انبعثت منها هذه الضجة فاذا بالذين فيها وعدتهم نحو الثلاثين ممن يسمونهم بالاحداث عرايا متهتكون وإذا

(١٠)

بالحادث كله مسألة من مسائل الشذوذ

ويتكرر هذا الحادث وإن لم تتكرر هذه الضجة ، ويطل الحياء منه لكثرة التكرار والابتذال فيرويه بعض المتهمين على مسمع من السجناء والحراس بصفقة كأنها صفقة الحيوان ، ومنهم من كان يساق إلى الجلد فينعى على زميله أنه خائن وأنه حائن في يمينه . . . ولا يحسب أن في الأمر غير ذلك ما يشين ، وربما وقعت هذه الحوادث وفي الحجرة أكثر من خمسة أو ستة ، لأن الحياء منها يوشك أن يكون في حكم المعدوم

ولست أذكر أتى قرأت كتابا واحدا عن ذكريات السجن إلا وفيه إشارة إلى الشذوذ الذي يدفع إليه كبت الغريزة الجنسية ، فهو مذكور في كتاب دستيفسكى « منزل الأموات » وفي كتاب مكارتنى Macrtney « الحيطان لها أفواه » . وفي كتاب الدكتور هامبلين سميث Homblin Smith عن حياة السجن . . . وفي كتاب بليز بياز Blair Niles عن المسجونين بجزائر الشيطان ، وفي كتاب جوزيف فيشمان Fishman عن المسألة الجنسية في السجن ، وفي كتاب فكتور نلسون عن أيام السجن ولياليه ، وفي الكتب والمجلات التي عقت على بعض حوادث الاصلاحات وسجن جوليت joliet بالولايات المتحدة ، وهي كتب تصف سجون آسيا وأوربا وأفريقيا

وأمرىكا ولا تقتصر على بيئة واحدة ولا على زمن واحد، فالآلة إذن آلة
السجن حيث كان ، والأمر أعم من أن يعالج بالمدارة والنسيان
وقد عولجت هذه الآلة بأساليب مختلفة فى أمم شتى ،
فسمحت حكومة الفيلبين للسجين بعد قضاء فترة يسيرة أن ينتقل
إلى مستعمرة تآديبية يتصل فيها بأهله وذويه

وقررت حكومة سلفادور أن تسمح لمن تشاء من زوجات
السجناء أن تزوره زيارات أسبوعية فى حجرات مستقلة
واعتمدت الولايتان الأمريكيتان ألاباما وميسيسيبى
Alabama and Mississipi نظام الأجازات بين حين وحين
لمن يحسن سلوكه من السجناء ، ولم يختل فى ملاحظة الموعد
المضروب لانتها الأجازة غير سجين واحد من مئات يقضون
أجازاتهم كل عام

وأضافت ولاية ميسيسيبى إلى ذلك أنها تمنح السجين فترة
تجريبية من شهر إلى ستة أشهر إذا استقام فى أثنائها واهتدى
إلى عمل صالح يرتزق منه مدت له التجربة سنة فسنة إلى آخر
المدة المحكوم بها ، وأعفى من العقوبة

أما فى روسيا فقد عولجت هذه الآلة بطريقة لا يمكن
أن تقرها حكومة تؤمن بالدين ونظام الاجتماع الذى خرج

عليه الشيوعيون . . . قال الصحفي المشهور نيجلي فارسون
Negly Farson في كتابه « طريق الفضولي » :

« أخبروني في الاصلاحية التي بظاهر كيف أن تجربة
السماح للسجناء — ومعظمهم من القتلة — بالذهاب إلى قراهم
إبان الحصاد تجرى على ما يرام ، لأنهم يعودون بلا استثناء .
وأمامهم تجربة أخرى وهي أن يأذنوا للسجين العامل في الحقول
أن يملأ على الحارس أسماء صديقاته البنات في كيف ، فيجيز
الحارس واحدة منهن إلى حيث تلقى السجين ، وتدار الظهور
وتغمض العيون عند ما يوغل الفتى وقتاته في الغاب »

ويقال إنهم يعتمدون على هذه التجربة في نحو الشذوذ
الجنسى من السجون . فإن بقي منه أثر فكالذى يبقى في المجتمع
الطليق بين المطبوعين عليه

إلا أن الروسيين المحدثين قد عاجلوا شذوذاً بشذوذ ، وأدنى
من ذلك إلى العرف والفائدة أن يباح للسجناء الخروج من السجن
في فترات محدودة ، وأن يعتبر إطلاقهم حينئذ مكافأة لهم على حسن
السلوك ولا سيما في المسائل الجنسية ، ولا شك أن السجناء
يحتاجون إلى ترك سجونهم فينة بعد فينة لمطالب كثيرة غير هذا
المطلب ، تنفعهم وتنفع ذويهم وقد تخفف أعباء الزيارات عليهم

وعلى إدارات السجون ، ولعل التجربة تنفعهم أيضاً فيما لا يقع
الآن في الحسبان من تقويم خلق وإحياء عبرة وتجديد ثقة
وتشويق الى نعمة الحرية . ومهما يكن في التجربة من حرج
محتمل أو مقطوع به فهو دون الحرج الذي يصيب النفوس
والأبدان من إكراه الغرائز وفرض الحرمان أو الشذوذ على
من لا يحمد ولا يتغيه .

الوقت

الوقت أعدى أعداء السجين ، فلو اهتدى إلى طريقة يخلص بها من وقته لاهتدى إلى طريقة يخلص بها من سجنه .
الوقت فى كل مكان من ذهب كما يقولون . إلا فى السجن وما شابه السجن ، فهو من رصاص إن أردت ثقله وبشاعة اسمه ، وهو من تراب إن أردت رخصه ومضايقته ، والرغبة فى كنهه !

الوقت أثقل شئ على « وجدان » السجين وأخف شئ على لسانه : كل دقيقة فيه محسوسة محسوبة ، وكل دقيقة فيه حسبة يراد إسقاطها من الحساب ، وما هكذا يكون الوقت فى غير السجون

سبل من شئت بين الوف السجناء عما بقى له من مدة سجنه وثق أنه يغالطك فى الجواب ، وثق أنه غالط نفسه قبل أن يغالطك مرات ، بل ثق أنه لا يغالطك إلا ليستعين بذلك على مغالطة نفسه ! سألت أحدهم كم بقى لك من السنين ؟

فقال ثلاث ، وأنا أعلم أنه قد بقيت له خمس سنوات . لا تنقص إلا بضعة أيام . وإنما القاعدة عندهم أن يسقط السنة التى هو فيها والسنة التى يخرج فى نهايتها ، ولا يحسب إلا ما بين السنتين !

ولهم في تقصير المدة على اللسان أساليب بعضها مصطلح عليه وبعضها من اختراع كل سجين على حسب ذكائه وملسكه استنباطه .

سألت سجيننا بقيت عليه سبعة شهور : كم بقي عليك من أشهر ؟ فقال : الربيعان والجمادان ورجب وشعبان ! قلت أو تخرج في شعبان ؟

فقال : سأخرج في عفو العيد ! أى في آخر رمضان فهو قد جمع الربيعين والجمادين في اسمين بدلا من أربعة أسماء ، وأسقط شهر رمضان كله لأنه لا يعد في الزمان

وأعرف سجيننا كان سيخرج يوم الثلاثاء ، فلما بقي على خروجه ثلاثة أشهر أخذ يحسب المدة الباقية بالأسابيع ويختم الأسبوع يوم الأربعاء ، حتى إذا وصل إلى الأربعاء الأخيرة لم يحسب ما بعدها وأسقط بذلك ستة أيام

وكان لي جار مررت به أودعه قبل خروجي يوم ، فقال لي إنه سيخرج بعدى بخمسة عشر أسبوعا ... وأشار إلى خطوط على الحائط إلى جوار النافذة بعدة الأسابيع الباقية . فعمدت إلى خطين منهما فمسحتهما وقلت له : أتى أسقطت عنك هذين الأسبوعين كرامة لهذا التوديع !! فوالله لقد سر بذلك كأتى

مسحت الأسبوعين في مدار الأيام ، وشكرني على هذه النية أو هذه الأمنية ، وأحسبه قد عالج مشقة مرهقة في إعادة الخطين إلى مكانهما ، لأن هذه الاعادة تبدو له كأنها زيادة أسبوعين !

وعلى هذه المغالطة الشائعة ان تجد سجيننا واحدا يجهل الحقيقة أو يجهل عدة ما بقي له من الأيام باليوم ولو كان الباقي عدة شهور ، وسل من شئت منهم على غرة : كم بقي لك من يوم ؟ فإذا هو يجهل توا بلا تفكير ولا إبطاء . . . إياك أن تستكثر هذه الأيام أو تظهر بالدهشة والأسف ما يدل على استكثارها وإن كانت كثيرة . بل كل ما يمكن أن تقول في لهجة الاستخفاف : تهون ! فيقول لك : لا هنت ، أو يكرر الكلمة على مسمعك قائلا : تهون ! تهون !

وإذا دخل الليمان سجين محكوم عليه بخمس سنوات أو نحو هذه المدة قالوا له : إنما أنت زائر ! واحتقروه كما يحتقر ساكن البيت ساكن الخان النزيل ! وأقنعوا أنفسهم بهذه المغالطة أن الخمس السنوات في الليمان خطب يسير

والشأن في هذه الخصلة شأن جميع السجناء بلا استثناء عالم أو جاهل وذكي أو غبي ومجرب أو غريب . فكلهم يسوسون مشكلة الوقت على هذا المنوال ، وكلهم يالفون المغالطة هذه

الألفة ، وكلهم يستكبرون ما مضى ويستصغرون ما سيأتي .
وسوف يأتي إلى يوم الافراج ، وهو يوم محقق الوصول عندهم
جميعاً كأنما الموت قدر مؤجل إلى ما بعد وفاء المدة ، أو
كأنما الانسان لا يخرج من دنياه إلا بعد خروجه من سجنه
أو منفاه !

قال الكاتب الروسى الكبير « دستيفسكى » يصف منفاه .
وسجنه فى سيبيريا : « من اليوم الاول بدأت أحلم يوم
الخلاص ، وجعلت هجيراى أن أحصى ألوفاً وألوفاً من المرات
على ألوف وألوف من الطرائق والأنماط مقدار أيامى التى
سأقضيها فى المعتقل ، وكنت أفكر فى ذلك دون غيره ، وكل من
حرم الحرية فترة محدودة من الزمن فأنما يفكر على هذه الوتيرة ،
وإنى من ذلك لعلى أتم يقين »

وقال فى وصف الأيام الأخيرة : « لقد نسيت أموراً كثيرة ،
ولكنى أذكر - وبالشدة ما أذكر - كم كانت الساعات فى السنتين
الآخرتين بطيئة بطيئة ، وكم كانت الأيام حزينة حزينة ، لا يلوح
عليها أنها ستقترب من مساء ولا تزال كأنها خضم من الماء ينحدر
قطرة قطرة ، وإنى لأذكر كذاك أننى كنت مفعماً بشوق طاغ
إلى البعث والنشور من هذا القبر زودنى بقوة على الصبر والانتظار

والرجاء ، ومن ثم تعودت الجلد والاحتمال وعشت على الترقب
والأمل ، وعددت كل يوم عابر . فان بقي من الأيام ألف فقد
أشعر بالارتياح لأن يوماً قد مضى ولم يبق إلا تسعمائة وتسعة
وتسعون ! »

وهكذا تعتصم النفوس بالمغالطات ، ويصبح المستغرب :
هل أغالط نفسي ! كأن الانسان لا يغالط إلا غيره ! وهو
نفسه في الحقيقة أول المغالطين !

يوم الافراج

يوم الافراج
أو يوم البعث والنشور
أو يوم الحرية

أسماء كثيرة يسمى بها يوم الخروج من السجن ، والناس يحسبونه أسعد أيام المسجون لأنه اليوم الذى ينتظره مئات الأيام أو ألوف الأيام ، ويحسبون أن المسجون إذا قارب فجره لم تغتمض عيناه سرورا ببقياه وأوشك أن يطير فرحا بالوصول إليه . . . ! وهم على حق فيما يحسبون لو أن الشعور بما يقاس بأمثال هذه المقاييس التى تقاس بها الأحجام والأرقام . . . ولكن الشعور يجرى على منطق غير هذا المنطق وينقاد لأحكام غير هذه الأحكام . فيوم الافراج يوم لا تهتز له نفس السجين بسرور عظيم ولا تقبل فيه على موعد جديد . وسبب ذلك هو بعينه السبب الذى يحسبونه جالبا للفرح والبهجة والتهلل والاعتباط ، وهو أن السجين قد انتظره مئات الأيام أو ألوف الأيام

يظل السجين ينتظره ويطل انتظاره ويتأمله من كل جانب ويحسب المسافة بينه وبينه بالأشهر والأسابيع والأيام والساعات ، ويقدر ما يصنعه فيه ويعيد التقدير ويعيد الاعادة

ولا يفكر طوال ساعات الفراغ أو ساعات العمل في شيء غير هذا التفكير الدائم الدائب الذي يستنفد كل صورة وكل احتمال وكل خيال : حتى إذا جاء اليوم الموعود إذا بالسجين يراه كأنه وجه قديم طالما رآه وأدمن النظر إليه وعرف ملامحه وقسماته خفية وظاهرة وكبيرة وصغيرة ، ولم تبق منه لمحة واحدة لم يرها ويحقق رؤيتها بدل المرة عشرات ومئات ، فهو منظر من مناظر الماضي السحيق المتغلغل في القدم والآلة ، وليس بمنظر طريف ولا بموعد جديد

والمساجين ينظرون كل يوم إلى المفرج عنهم ويعجبون لهم ما بالهم لا يطيطون ولا يبتهمجون ، ويحسبونهم يتوقرون ويكتمون ما يخامرهم من شعور . حتى إذا جاء يومهم في الافراج عجبوا لأنفسهم بعد أن كانوا يعجبون الآخرين وهكذا كان من حظ بني الانسان أن يستنفدوا السرور بالمتعة التي تطول الرغبة فيها ويطول انتظارها ، فلا يستشعرون السرور الصحيح إلا بانصاف الآمال أو بالمفاجآت التي لا تخطر على البال !

ويخيل إلى أن أبخل البخلاء إذا انتظر مليون جنيه بعد عشر سنوات وهو على يقين من الوصول إليه عند موعد محقق لا خلاف فيه لأصبح هذا المليون وكأنه مبلغ في الخزانة داخل

في الحساب ، لا يشعر بالزيادة عند وروده ولا يشعر بفقده قبل يوم الموعد المنظور ، فهو ضائع من حسبانته في حالي الترقب والاستيلاء عليه ، وهو أقل من مائة جنيه يغمها ويشعر بزيادتها ولم يحسب لها ذلك الحساب الطويل

على أن اليوم - سواء عدته من أيام السعادة أو من أيام الفتور وقلة المبالاة - هو يوم ينطبع في الذاكرة وينطبع معه كل ما يلزمه من المناظر والمسامع والاحاسيس ، فهو محسوس به إحساساً عميقاً شديداً راسخاً في قرارة الوعي والبدية ، وذلك شيء أندر جداً من المسرات وأندر جداً من الأحزان

وإذا أراد الإنسان أن يشعر بأغوار هذا العمق فما هو بقادر على ذلك إلا إذا فوجيء في اللحظة الأخيرة بتغيير في الموعد أو خروج عن خط الانتظار المرسوم : هنالك يعالج شعور الفقد والشك بعد شعور الاطمئنان واليقين ، ويعلم أن تأخير ذلك اليوم ساعات معدودات هو بمثابة الحرمان المباغت من أعوام لا يحدها الاحصاء . . . وقد رأيت سجيناً يركبه البؤس والكرب والقنوط لأنهم أوشكوا أن يؤخروه يوماً واحداً لخطأ في المضاهاة بين الأشهر العربية والأشهر الافرنجية ، فلما ردوا له ذلك اليوم الواحد اذا به يشعر بالخلاص منه أشد من

شعوره الأخير بالخلاص من الأشهر والسنوات

جاءني مأمور السجن عصر اليوم الذي سأغادر السجن في غده ، وقال لي إنه لا يعلم في أى ساعة سيكون الإفراج ، فيحسن بي أن أكون على استعداد للخروج منذ الصباح الباكر ، وإنه لهذا سيرسل لي الحلاق بعد هنيهة ليحلق رأسي ولحيتي التي مضت عليها ثلاثة أيام ، ولا يحب رجال السجن أن يخرج السجن من عندهم على هذا الحال ، لأن رؤية اللحية الطويلة تلقى في روع الناس أن السجن خارج من مكان يكثُر فيه الإهمال وتقل النظافة والنظام

والحلاقون في السجن هم حلاقون مسجونون يزاولون هذه الصناعة ويحسدوهم أصحاب « الأشغال » الأخرى لأنهم يرون أن الحلاقة عمل خفيف لطيف لا مشقة فيه ؛ وكانوا يزوروننا في الحجرة مرتين كل أسبوع فنسمع منهم قصص السجن بجميع أنحائه لأنهم يطوفون على جميع السجناء ، والعجيب أن هؤلاء الحلاقين على كثرتهم كانوا من المتهمين في قضايا المخدرات إما بالتعاطي أو بالاتجار ، وكانوا لهذا يعلمون من أخبار الحياة الاجتماعية العالية والوضيعة ما يشوق الاطلاع عليه ؛

وقد نسوقهم إلى ذكره أن آثروا السكوت أو خشوا
رقابة الحراس .

أما في هذه الخلاقة الأخيرة فقد كان يعينني أن أفرغ منها
في دقائق عاجلة لآتي فوجئت بتغيير نظام الخروج ، وكان لا بد
لي من ابلاغ ذلك إلى أخي الذي كلفته أن ينتظرني بياقات الزهر
على مقربة من السجن حوالى الظهر موعد الافراج المعتاد ،
وقد كان ضريح «سعد» الذي أعددت له تلك الباقات على طريق
«قره ميدان» . . وكان يتردد بيني وبين أخي بالرسالة والجواب بعض
الموظفين وهم ينصرفون بعد العصر بقليل . فاذا فاتني أن ألقى واحداً
منهم قبل انصرافه فقد اختلف التقدير واختل الحساب ، وقد أזור
ضريح سعد عقب خروجي ولكن بغير أزهار ، أو أזורه
ومع الأزهار ، ولكن بعد أن يطل معنى هذه الزيارة التي
قصدت أن تكون أول ما أبشر من عمل الحرية

وشاء الخلاق أن يتليني في هذه الخلاقة الأخيرة بكل
ما اشتهر به أبناء صناعته في أحاديث الغابرين والحاضرين من
حذقة وثرثرة ومضايقة وإعنات

والحق أتى كنت أسمع بهذه الشهرة وأقرأ روايات الرواة
عنها في كتب العرب والأفرنج فأحسبها من مبالغات الهازلين

لأن الله لم ينسكنى قبل ذلك بحلاق ثرثار . أما فى ذلك اليوم فقد عرفت أن الحقيقة أكبر من مبالغات الجادين والهازلين فى بعض الأحياء . وأخذ هذا الحلاق « الظالم » بحقوق جميع المظلومين من أبناء الصنعة !

وضع صاحبنا فى ذهنه أنى خارج غداً وأن الناس سيلقوننى فلا يلتفتون إلى شىء غير « حلاقى » النظيفة وغير العجب من أن أظفر بهذه الخلاقة الفاخرة بين جدران السجون .. وسيتحدثون ولا يسألون عن شىء فى حديثهم إلا أن يعرفوا اسم ذلك « الفنان » المغمور المدفون فى تلك الغيابة المظلمة ، وسيلبثون منتظرين متشوفين حتى يأذن الله برده إلى حانوته المجهول فيتسابقوا إليه وينبذوا من كانوا يعيشون فى رؤوسهم ولحاهم من جهلاء الحلاقين ، ويحمدوا الله أن سعدوا بجلسة تحت يدى هذا النابغة العظيم

وضع صاحبنا فى ذهنه هذا الخاطر فأحفى غاية الاحفاء وأمعن غاية الامعان ، وطفق يفهمنى أنه ما من عدة يستعد بها الحلاقون فى الأماكن المنتظمة إلا وهو قادر على الاستغناء عنها بحيلة من الحيل وبراعة من البراعات ، ومضى يحرب تلك الحيل وتلك البراعات حيلة حيلة وبراعة براعة ليرينى صدق ما يقول

رأى العين ، وأنا أقرظ. وأزكى وأعيد التقريظ والتزكية ، ولا
جدوى ولا نجاة

وأخذت أنبهه الى أتى مستعجل وهو لا يتنبه ، وأرجوه أن
يسرع وهو لا يزيد على قوله « حاضر » ثم ينساها بعد لمحة ،
ويدأب على ما كان فيه كابطاً ما يكون الابطاء وأدق ما يكون
التدقيق

وتمللت وهو لا يحفل ، وتأفقت وهو لا يكثرث ، وظن أخيراً
أنه فهم لماذا أتملل وأتأفف وان « الدنيا » حر وقد كانت « حراً »
حقاً لأن الشهر شهر يوليو والساعة ساعة الاصيل ، فلما قلت
له بل انى « انتفض » من البرودة ضحك وأغرب فى الضحك
وظن انها « نكتة » وأنه وهو « واحد » من أبناء البلد لا يليق
أن تفوته هذه النكتة دون أن يوفىها حظها من المزاح والتعليق
فما العمل ؟

كل شيء يمكن اقتضابه إلا أن ينطلق الانسان بوجه نصفه
مخلوق ونصفه غير مخلوق فغالبت غيظى وضحكى المسكظوم
من هذا الغيظ ، واتخذت كل ما يسعنى اتخاذه من هيئة الجد
والاهتمام وقلت (انى لا أستطيع أن أصبر فوق ما صبرت ،
فاكتف بما صنعت واقع بما أبدعت ، واجعل همك أن تتركنى

بعد دقائق قليلة على حالة تصاح لمقابلة الناس ، وأنا أتمم البقية
غداً فسيكون عندي متسع للاتقان والاحفاء

فاختلج كالمذعور وصاح بي : عيب يا أستاذ . . . ماذا
يقولون عنا اذا شهدوا هذه « اللكلكة » وهذه العجلة بغير
عناية ؟ ؟ أيقولون إننا لا نقدر الاستاذ قدره . . . أم يقولون
إننا صبيان في هذه الصناعة ؟ ؟

وفطنت لما يدور بخاطره وما يبنى به نفسه من ذلك الاعلان.
المأمول . فاحسبت أن أفعه بعض ما فجئني وقلت له وكأنتي
أطمئنه وأهدي روعه : لا تشغل بالك بهذا يا فلان ! اتى لن
أبوح لأحد باسمك . . . فعجل ما استطعت وأرحني أراحك الله !

فارتعب الرجل وخيل إلى أنه يوشك أن يدق صدره ويلطم
خديه ، وبدر على لسانه ما خبأ في جنانه ، فصاح قائلاً : ماذا
يا أستاذ ؟ أتحرمني هذا الشرف وأنا أنازع رصفائي عليه منذ أيام ؟
يا ضيعة المسعى ويا خيبة الرجاء ؟ أتكنتم إسمي كأنتي أسأت
وقصرت وأنا أقطع يدي وآتى بغاية ما عندي لأبلغ اليوم
قصارى الاحسان والاتقان ؟ ؟ . . . لا لا . . . يا أستاذ . . . كلها نصف
ساعة وينتهى كل شيء على مايرام . ولا عليك من اقتراب موعد

الاغلاق فان الحراس لن يضمنوا بفتح الباب لي إكراماً لك . . ولا سيما في عشية الوداع !

وكأنما كان هذا المنكود ملهما أن يشير قلقي ويدكرني ما أحذر وأتقى فان إشارته إلى « موعد الاغلاق » عصفت بالبقية الباقية من صبرى فألقيت بالمنديل الذى ناطه بعنقي وهممت بالخروج إلى فناء السجن فلم يثنى عن انفاذ عزمي إلا أن الخروج على هذه الصورة يجمع حولي الحراس والموظفين ، إن بقى أحد منهم إلى تلك الساعة ، فلا يتيسر لي أن أتصل بمن أريد

أشهد أننى شعرت بغبطة الافراج كلها ساعة أفلت من يد ذلك الخلاق « راجى عفو الخلاق » لا عفى الله عنه . . فان حركة اليأس التى اندفعت اليها فى غير عمد ولا روية قدأ كرمته على قبول « التضحية » بنفسه واتقانه والرجاء فى شهرته وعرفان قدره ، فاستسلم للعجلة والندامة معا وانقلب إلى إبداء براعة السرعة وحنافة الهرولة بعد براعة التؤدة وحنافة الاستقصاء والالانة . وتبعنى بعد أن تركته . وهو يستحلفنى ألا أنساه ، وأنا أقسم له اننى لن أنساه وان أردت نسيانه . . ثم انتهيت الى فناء السجن وقد تخلف فيه بعض الموظفين عمداً إلى ما بعد موعد الانصراف ، لأنهم قد علموا من الحراس بما

انبأني به المأمور فانتظروني ريثما أخرج من الحجرة لعل أفضي اليهم نبأ أو رسالة ، وقد تمهدت السبيل في اللحظة الأخيرة وخلا الجو للمقابلة والكلام ، فاسررت اليهم بما عندي وعلمت بعد ذلك أنهم أدوا الرسالة في أمان ، بل في إفراط من الأمان .. لاني علمت أيضاً بعد ذلك أن أناساً من هؤلاء كان معهودا اليهم أن يتلقوا رسائل الشفوية وينقلوها إلى مرجعين لا إلى مرجع واحد وأنهم كانوا يوقعون بمن يخلصون في نقل رسائل مخاطرين مستهدفين للغضب والعقاب ، ليستاثروا وحدهم بهذا الواجب المشكور المأجور

بت تلك الليلة كما أبيت كل ليلة ، ونمت كما أنام كل ليلة ، وأصبح الصباح فلم أكد أفرغ من تناول الافطار حتى وافاني الضابط في الحجرة يسألني : هل أنا على استعداد ؟ ؟ فقلت على أتم الاستعداد إذا شئت أن أفارقكم وأنا بملابس البيت ، اما إذا كرهتم ذلك فليس بيني وبين الاستعداد التام الا خمس دقائق ولاح عليه أنه ينتظر هذه الدقائق وهو مشفق من اغضاب رؤسائه ، لاني لم البث في الحجرة الملاصقة لحجرة المأمور الا دقائق معدودات تسلمت فيها ودائعي وانتقلنا بعدها مهرولين إلى سيارة مقفلة داخل السجن على أهبة المسير ، فما هو إلا أن استقررنا بها حتى فتحت

لها الابواب وطارَت الى الميدان فالى شارع محمد علي وهى لا تلوى على شىء ، وما زالت تعدو بهذه السرعة حتى بلغت سجن الاستئناف ، واسلمتني اسلاماً جديداً الى مأموره ، فنقلنى نقلاً جديداً الى حجرة خالية ، واستنزلنى بعدها الى الفناء فى ساعة الرياضة ، وكانت نحو العاشرة ، ولا يزال باقياً على موعد الافراج عند الظهر ساعتان

على أننى لم البث ربع ساعة فى هذه الرياضة التى لا معنى لها فى يوم الافراج غير التزام القواعد والأصول ، وإذا بكبير من موظفى السجون يقبل على عجل ، ويسلمنى ودائعى مرة أخرى ، ويهيننى « بالفرج » ويتركنى فى كفالة ضابط يصاحبه رجل عملاق من رجال الشحنة الذين يعدونهم لأعمال العنف والتهديد ، ويمضى الموظف الكبير لطيته وأمضى أنا والضابط والعملاق إلى حجرات الموظفين بمحافضة العاصمة من طريق خلفية ، ثم إلى مركبة تهرب بنا إلى منزلى بمصر الجديدة من ناحية شارع فاروق فى أيام المحاكمة كانت الجلسات تبدأ الساعة العاشرة أو الحادية عشرة وكانوا يحضروننى مع ذلك فى أبان الشتاء القارس قبل الساعة الثامنة وقبل أن يأذنوا لأحد بالدخول الى قاعة الجلسة ، وقد فهمت سر العناية بهذا التبكير ، لأن النيابة كرهت

أن أدخل القاعة وهي مزدحمة فيقف الحاضرون تبجيلا. لهذا
«المتهم» الذي يراد له إلهوان ، كما فعلوا في الجلسة الأولى
وفي يوم الافراج فهمت سر العناية بهذا التبكير وهو اتخاذ
الحيطة للمظاهرات وزحام الاستطلاع

أما الذي لم أفهمه ولا أزال أجهله فهو هذا العملاق المعد
للعنف والتهديد ولا حاجة هناك لعنف ولا تهديد : إثنى لن
أهرب من المركبة الهاربة ولا أخال ان عملاقا واحدا
يخيف الجماهير اذا تعطلت المركبة ووقفت في الطريق ، فلم يبق
إلا أنه حكم الصنعة كما يقولون ، وان الشرطة لا يتخيلون لهم
مهمة يؤدونها بغير تخويف ، لأنهم لا يكونون شرطة بغير
ذلك ، وإلا فما الفرق بين المزاملة والحراسة ؟ وما الفرق بين
السطوة والايأس ؟

طارت بنا السيارة في مدينة معهودة غير معهودة ، وشائقة غير
شائقة ، كاتنى أطراً عليها لأول مرة أو كأتنى استذكرها بعد
غيبة طويلة ، ولا يمنعنى أن أتلفت اليها تلفت الغريب الطارىء
إلا أنى في فسحة من الوقت بعد فترة وجيزة للتلفت والاستدكار
ولا يحضرنى اننى التفت الى معلم من معالم الطريق غير مدرسة
الصناعة بالعباسية الوسطى . فقد كانت حديثة البناء فسألت عنها

الضابط فقال لى : نعم هى حديثة ، ولم يزد على ذاك
ولما شارفنا المنزل دعوت الضابط والعملاق لتناول القهوة
أو المرطبات فاعتذرا ، لأنه حكم الصنعة كذاك !
ولم يمنعنى كل هذا التحوط والروغان أن أعود من مصر الجديدة
إلى حيث أنجز البرنامج الذى عولت عليه قبل مغادرة السجن ،
فرجعت من حيث أتيت ، وزرت ضريح سعد وضريح ويصا ،
وتبين لى أن أخى وأصحابى كانوا يلاحقونى من مكان إلى مكان ،
لأنهم كانوا يعلمون بانتقالنا من كل موضع ومخبأ ، على الرغم
من التخفى والاتاهة والاسراع .

وجلس فى المنزل كما كنت أجلس ، ولقيت الأصحاب
وسمعت التهنئات . فأما الأصحاب فقد سرنى لقاءهم بعد وحشة ،
وأما التهنئات بالافراج فكنت كأنما أصغى منها إلى حكاية
قديمة أو حديث معاد .

هل مضت على آخر جلسة فى هذا المكان تسعة أشهر ؟
لا أظن . . . أو أظن أنها مضت ونسخت نفسها بانقضائها ، فلم
أمكن فى المنزل ساعات حتى خيل إلى أنى رجعت إليه ذلك
الضحى بعد أن فارقت ذلك الصباح !

بعض الشخصيات

لبثت في السجن وخرجت منه ولست أذكر من سكانه
الذين يستحقون اسم « الشخصيات » غير ثلاثة أو أربعة من
أربعة آلاف إنسان تحويهم جدرانها ، وهو عدد يساوي عدد
الرجال في عاصمة من عواصمنا المصرية المشهورة
ذاك أن « الشخصيات » في سجن مصر نادرة .

فالسجناء هناك أرقام في حساب مصلحة السجن وهم كذلك
أرقام في حساب الطبيعة : كلهم مغمورون في بحر لجي من الضالة
والخسة والتفاهة ، لا يعلو بينهم رأس فوق الغمار ولا تتباين فيهم
الخلايق والصفات إلا كما تتباين الموجة والموجة في بحر هادي .
ذليل ، لا تضربه العواصف ولا يعج ولا يلتطم .

وهؤلاء « الشخصيات » الثلاثة أو الأربعة الذين أذكرهم من
سكان السجن هم أيضا خلقاء أن يغرقوا في غماره ، ويتواروا
في خموله لولا بعض الغرابة الملحوظة على اثباج ذلك الخضم
الواسع من التفاهة والفهاة .

فالغرابة إذن شفيحهم إلى الذكر والنباهة ! وليس شفيحهم
إلى الذكر والنباهة مزية إنسانية أو قدرة خارقة أو صبغة مستملحة
من ألوان الحياة الفريدة

أحد هؤلاء « الشخصيات » مجنون يتنازعه السجن
والبيارستان

والثاني مجنون أيضا ولكن على طراز آخر من الجنون
والثالث مقعد مبتور الرجلين إلى الفخذين
والرابع - ان كان لا بد من تحقيق قولة الثلاثة والأربعة - خليط
من الجنون والعريضة والمكر والدماثة المصطنعة والجموح الصحيح
وكلهم يسكنون السجن على انفراد ، لأن الجمع بين واحد
منهم وزميل آخر في حجرة واحدة مستحيل

اننى لآتمشى ذات يوم فى فناء السجن إذا بشيطان أسود يقطر
منه النفط القدر يعدو هنا وهناك ويفر منه الجند والموظفون
من هذا ؟

هذا هو المجنون الأول نقيب ، ولنسمه بهذا الاسم القريب
من اسمه ولا نذكره باسمه المشهور مخافة المساس بهذه الشهرة
الحسنة والسمعة المبرورة ، وخشية المقاضاة ورد الشرف
والتعويض !

ولماذا صنع نقيب هذه الصنعة الكريهة بنفسه ؟ ولماذا
أغرق نفسه فى حوض النفط وهو بغيض إلى الشم بغيض إلى

الذوق بغيض إلى النظر ، غير مأمون على البشرة والحواس
والجوارح ؟

مكره أخوك لا بطل !

هجم على الخبز لاختطاف رغيف ساخن ليس من حقه ،
فهجم عليه الحراس يوسعونه لكزاً ولكاً ويقودونه إلى «سعادة
المأمور» ... تخير ما يصنعه نقيب في هذه الحالة أن يقذف بنفسه
إلى حوض النفط القذر لحظة واحدة يخرج بعدها كما رأيت
شيطاناً مرهوباً يفر منه من كانوا يطاردونه ، ويتقى لمسته من
كانوا يوسعونه ضرباً ولا يرسلونه من قبضتهم طريقة عين !

وراح نقيب يصول ويجول ويعسُدو ذات اليمين وذات
الشمال ، وكل حارس حريص على كسوته يهرب من وجهه
ويستغيث بالسجناء المطلقين في الفناء لأنهم لا يخافون على
كسوتهم كما يخاف الجندي والحارس حتى شبع نقيب
من الصيلان والجولان ، وأنذره ضابط السجن بمسدسه فخضع
واستكان .

ويجيئه المأمور الرجل الوقور ويصيح به : ما هذا يا هذا ؟ إتنى
لا أريد أن أجن معك ... إتنى سأرسلك إلى البيمارستان !! ...
فينظر إليه نقيب في جد لا شائبة فيه من الهزل والمجانة ، ويقول :

معاذ الله يا سعادة البك ! وهل نحن من أهل ذاك ؟

لا سمح الله !

ولنقيب مذهب في تقدير الجرائم والعقوبات يختلف من كل مذهب مآثور بين الناس في فلسفة الشرائع والقوانين كان على وفاق مع رجل قصير قميء من تجار المخدرات محبوس على ذمة التحقيق ، وكان الرجل يستظرف نقيباً ويلطفه بلحوم الدجاج والضأن والديكة الرومية والفاكهة والحلوى والمطبوخات من كل صنف تتسع له ثروة المتجرين بالمخدرات ويسعى أهل الفساد بين نقيب والرجل فيمنع عنه بره وسلامه وكلامه ، ويهيج نقيب هيئته الغضنفرية الحمارية الجامعة بين الزئير والنهيق ، وهو لا يحتاج إلى أكثر من هذا السبب للغضب والثورة والوعيد

فبعد أن يفرغ جعبته من الشتم والتعير في بعض الأيام يسكت كمن يفكر ويتدبر ثم يقول :

من أنت ياها الحقير ! إتنى أحققك ... إتنى أسحقك ..
إتنى قد ضربت الدكتور فلانا وهو طول وعرض وقامة وهامة

وأخذت فيه أربعة أشهر . فأنا أقتلك وأنت « شبر نكد » ولا
آخذ فيك أكثر من أسبوعين . . . ويشاور القاضي عقله بعد
خروجي من المحكمة !

ولو اعتمد المشترعون مذهب نقيب في تقدير الجرائم
والعقوبات لاستغنوا بمتري في كل محكمة عن كل هذه الأسفار
والمجلدات ، وكل هؤلاء المفسرين والشرح

وتسمع في هدأة الليل لغطا وحركة ، وتسمع الحارس
يقول : من هذا ؟ وأولى به أن يسأل : من هؤلاء ؟

نعم من هؤلاء أولى ، لأنك تسمع غناء عبده الجمولي ،
وتقريظ الحاشية حوله ، وهتاف السامعين وضجة الطفيليين
الراغبين في دخول الفرع وغشيان السامر وما هم من المدعوين اليه .

وكل هؤلاء هم « نقيب » وحده بلا مساعد ولا معين
لأن « نقيباً » كما ينبغي أن تعلم بحسن « التقليد والمحاكاة »
بعض الاحسان ، ويهوى الغناء من قديم ولا يعجبه غناء بعد
عبده الجمولي ومحمد عثمان ، ويضاف اليهما يوسف المنيللاوى مع
التحفظ والعطف وزم الشفتين !

وتسأله كل مرة يتحدث فيها عن مجالس الطرب القديم في عهد
اسماعيل : كم عمرك ؟ فيصر في كل مرة على أنه لم يتجاوز الأربعين !
مع كل هذا الجنون عاقل !
أو مع ما فيه من العقل مجنون !

وإذا تكلم نقيب فليس من يلجئه إلى السكوت ، وإذا
سكت فليس من يلجئه إلى الكلام
ولكن الخبثاء من سجناء المحاكم المختلطة — وأكثرتهم تجار
لبقون — يعرفون كيف يخرجونه من الصمت العنيد إذا
احتاجوا إلى مناوشاته وعربداته وأغانيه ، وهم أحوج ما يكونون
إليها في غياب المسارح والسهرات
هو يهـذر ويحكى عن أهله وينسى بعد ساعة واحدة
كل ما قال .
وأنه لفي صمته العنيد ذات ليلة إذا بصائح يناديه : كيف
حال بهية !
وإذا بصوت ينفجر من ناحية الحجرة التي فيها نقيب : بهية
من يا ولد ! ؟

فيجيب التاجر الخبيث : بهية أختك ! بهية ذات الشعر
الأصفر ! بهية ذات العينين النجلأوين ! بهية ذات الردفين
الثقلين ! بهية التي تلبس الرداء الأخضر ! بهية التي تسكن في باب
الشعرية !! بهية يا حسرتي على بهية !!

وكل هذه أوصاف سمعها التاجر وسمعها « العنبر » كل ليلة
من الليالي الغابرة من فم نقيب دون غيره ، ونسيها نقيب

ويصدق صاحبنا ما سمع ، ويثوب إلى نفسه وكأنه يناجيها :
« صدق من قال لا أمان للنساء ! » والعجيب أن « بنت
الكلب » أوشكت أن تدفعني إلى الموت لأنها شكت إلى رجلا
يغازلها ويسد المنافذ عليها ، فبطشت به ولم ينقذه من يدي إلا
عمره لك حق يا فلان . اذهب فاصنع بها ما تشاء !!
ثم يرجع ثائراً ويندم على هذا « التفويض » وينادي
التاجر : إياك يا هذا أن تصنع بها شيئاً : والله بعمر ك !! والله
الحكاية كلها مشوار من هذه الحجرة التي أنا فيها إلى بيتك ومن
بيتك إلى هذه الحجرة التي أنا فيها وعوض الله عليك في
عمر ك : أسمعت ؟

نعم سمع ، وسمع العنبر كله ، وهذا هو المقصود

وأعترف أنني قد عرفت من تقيبنا هذا شيئاً كثيراً من طبيعة
الشاعر القديم ، أو الشاعر المداح الهجاء : عرفت أن كل ما
يتوخاه ذلك الشاعر في فنه هو أن يقول لممدوحه إنني أريد أن
أرضيك بالثناء وترضيني بالعطاء ، وهي صفقة معقودة علانية
يعلم المادح والممدوح والسامعين ، لا حاجة فيها إلى الصدق
ولا إلى المعاشرة ولا إلى الاخلاص ولا إلى شيء غير البضاعة
والثمن ، والبضاعة هي المدح الظاهر والثمن هو العطاء الظاهر ،
وكان الله يحب المحسنين

نقيب لم يكن يعرف أحداً من سجناء المحاكم المختلطة الذين
كانوا يبرونه بالحلوى والجبن والادام ، ولكنه يعرف دائماً
أن الذي يعطيه قطعة من الحلاوة الطحينية أو شريحة من الجبن
رجل سرى يملك سيارة فاخرة تخطف الهواء ويركبها الركب
وهو حذر على طربوشه أن يطير . . . وأنه يملك قصرأ باذخاً
في بعض الضواحي دخله هو وأكل فيه ولم ينفذ إلى حجرة
استقباله إلا بعد أن عبر خمسة بوابين ، ويعرف أن الحرير أبيض
ما يلبسه الخدم في ذلك القصر الباذخ فضلاً عن السادة والسيدات
وهو يجهر بهذه المعرفة ليلة العطاء العلني المشهور المذكور بين سائر
السجناء . . . وينادي أحد الزملاء ليحدثه جهرة بهذا كأنه يعني أن

يكشف له سرّاً في غياب الممدوح لأنه لا يخاطب الممدوح
وإنما يخاطب سواه فالسكلام إذن لا تمليق فيه ولا تزوير
ولا محاولة إرضاء أو جزاء

نعم . . . ويعرف نقيب تماماً في اليوم التالي أو اليوم الذي .
بعده أن ممدوحه هذا بعينه صعلوك بن صعلوك . لا يملك سيارة
وإنما هو « حمار سيخ » لا يساوى شلنين !! ولا يملك قصراً
باذخا وإنما هو كوخ في عرب المحمدى يبنى وينهدم في يوم !!
ولا يلبس الحرير وإنما هي ملأة الفرش القديمة يرقعها ويفصلها
جلابيب . . . والظريف أن يكون جلاباب الممدوح أو المهجور
ذلك اليوم من نسيج منقوش بالمربعات التي تنقش بها ملائات
السري فالشاعر على هذا لا ينسى بعض الحقائق وبعض
المناسبات !

ذاك هو المجنون الأول
أما المجنون الثاني فقد كنا نعجب له كيف اتسع وقته لزيارة
البيمارستان وهو لا يفارق السجن إلا ليعود إليه ، وكيف يفارق
البيمارستان إذا دخله مرة وهو أقرب إلى أهله من أهل السجن
قال لي هو أنه قضى في السجن أكثر من عشر سنين ، وقال

لى أحد الحراس انه قضى فيه ثلاث عشرة سنة كلها أحكام مقطعة
بين ثلاثة أشهر أو ستة أشهر أو سنة ، وهو يعيد نفسه إلى السجن
كل ما أخرجوه عند انتهاء أمده على الرغم منه ، وما عليه إلا أن
يخطف ما يخطف أو يضرب كل من صادفه أمامه صالحاً
« للانضراب » ثم يدع للحكمة والشهود والمجنى عليه أن يحلوا
الغز ويكشفوا عن سر الجريمة بين مضروب لا يعرف الضارب
وضارب لا يعرف المضروب

وقد سرى إلى قرارة خلده شعور صادق بضرب من « الملكية »
للسجن بحق المكث الطويل فيه ، فسمعتة يوماً يتحدث مستخفاً
غاية الاستخفاف عن مأمور السجن الذى مضت عليه فى الوظيفة
سنوات ، ويذكره باسمه وهو يناجى بعض أصحابه قائلاً : من
هو « فلان » المأمور هذا ؟ . إتتالا نسمع به إلا هذه الأيام !
وهذا المخلوق — وليكن اسمه عساسة على طريقتنا فى تسمية
نقيب — هو النشوز بعينه لمن يراه ولمن يسمعه ولمن يراقب
أحواله ويستقصى أخباره

وجهه ناشز وصوته ناشز وأخلاقه وأعماله نشوز فى نشوز ،
ولكن المدهش فى نشوزه انه على استواء واحد كأنما ينشز بقاعدة
مرسومة ، فاذا غنى اليوم وأعاد الأغنية بعد عشرة أيام فوق

النغمة في الأذن واحد وهي مع ذلك ناشزة في كل مرة على نحو مختلف من النشور . فليس التشابه في أغانيه كتشابه الاسطوانة التي تعاد والدور الذي يضبط ويدار على لحن واحد ، ولكنه مع ذلك تشابه لا يحكيه أحد سواه

ولا ريب عندنا في أن عساسا هذا على حظ من مزاج الشاعرية يناسبه ويمثله في الهبوط والتفاهة ، فهو اذا احتواه الليل بين أركان حجرته رفع عقيرته وخاطب تلك الحجرة الجافية معددا لها شواهد حبه ودلائل غرامه ، وانها هي التي تعلق بها وتعلقت به فقيها مشتاها ومصيفه وإليها منقلبه وما آله ، ولديها معتصمه وملاذه من المأمور وغير المأمور ، وعليه نظافتها وجلالها ، وبينه وبينها ما ليس بين الزوج وزوجه من رحم ومودة

ومن أجل هذه الأغاني سماه السجناء والحراس « عساس الأوضة » لأنه يسمى الحجرة « أوضه » ولا يسميها زنزاة كما تعرف في قاموس السجون

وللجراية عنده أنشودة أخرى تجاري حركة التوزيع ساعة تفريق العدس والخبز عليه وعلى الزملاء : قرب يا شاو يش ... وهات الجراية ١١ واغرف يا شاو يش ... وفرق الجراية وانصفنا يا شاو يش واشبعنا من الجراية وهكذا من

قافية الشاويش إلى قافية الجراية حتى ينتهى التوزيع وينصرف.
السجناء وهم يرددون ما لقنهم إياه شاعرهم عساس
وتمام العلم بنشوز هذا المخلوق الغريب أن تعلم أنهم نقلوه
من «أوضته» العزيزة عليه إلى قسم التأديب فاراد أن ينتقم من
المأمور فماذا صنع ؟؟ عمد إلى الصحيفة التي تنشط إلى صدره
وعليها رقمه فشحذها وقطع بها إحدى خصيتيه !

أما ثالث الثلاثة أو الأربعة الذين يستحقون اسم
«الشخصيات» بين أولئك النكرات فليس هو بمجنون ولا
بمخبول ولا بشاعر أو فنان ، ولكنه رجل مقعد يمشى على
خشبته ذات مكر يدفعها بمقبض في كلتا يديه كما يدفع السابحون
زوارق الحمام

ولا يخاف السجناء مجنوناً في ثورته كما يخافون ثورة هذا
المقعد الكسيح

ويخطيء القارىء إذا فهم من قولنا «ثورته» أن الرجل يثورها
مهتاجاً مغلوباً على أمره كما يثور الغاضب المحنق ، أو الطائش
اللاحق كلا ! فإن الرجل ليثور لأنه يريد أن يثور ، بل

محتاج الى أن يثور ، فتورته في كل مرة لا تأتي إلا بروية
وتدبير وتقدير

وجلية أمره أنه سجين مخدرات وأنه في السجن ما زال
يتجر بالمنوعات والمهربات ، وأهمها وأنفسها التبغ والكبريت
ولغله يكسب في السجن أضعاف ما يكسبه من السعوم
المهربة وهو طليق

فاذا استضعفه أحد من عملائه وظن أن هذا العاجز الكسيح
أهون من أن يحسب له حساب أو يؤدي له حساب — فالويل
للأحق المأفون من عاقبة جهله وغروره : انه لمغلوب ولو كان
أقوى الأقوياء ، وأنه لن ينجو من الجروح والرضوض وإن لم
يظفر به الكسيح كل الظفر ولم يهزمه كل الهزيمة ، فبينما الخصم
القوى الواقف على قدميه لا يناله في مقتل ولا مأمّن إذا بذلك
الكسيح يتناول كل مانالته يدها ويقفز ويندفع ويكر ويفر كأنه
الديك الصائل لا تمسكه العين في حركة واحدة أو موضع واحد ،
وسلاحه في كل ذلك تلك الخشبة التي يجلس عليها وذلك
المقبض الذي يحمله في كلتا يديه ، ولا تنتهى المعركة إلا وهو
أربح الخصمين وأسلم المضرويين

هذا المخلوق هو مثال القوة التي تخلقها الحاجة إليها ،
واستضعاف الناس لمن لا يحسبونه من أهلها

بقى الرابع المرشح لتكملة العدد ، ولك أن تحسبه أو تسقطه
من عداد هذه النخبة المباركة ، فلست أعرف له من معالم
« الشخصية » إلا أنه يضطرك إلى رؤيته ويفرض عليك
وجوده . فاذا أقبل شبح من بعيد في غرارة من غرارات العقاب
المفتوحة عند الكتفين فغالبا ما يكون الشبح المقبل هو « الون » .
بعينه وإذا رأيت كسوة حمراء من كسى التأديب تقترب
في عنف وعجلة فاقرب الاحتمالات إلى الصواب أن « الون »
هو صاحب تلك الكسوة الحمراء ، وإذا لم يكن بين المصطفين
للجلد فهو لا محالة بين المصطفين للتحقيق أو بين المصطفين
للفحص الطبي في غير مرض ولا انحراف مزاج ، وإذا لم تسمعه
مغنيا في هذه الطبقة فهو ولا ريب صائح أو صاخب في الطبقة
المجاورة . . . فليس هو « شخصية » لأنك تحب أن تراه أو يهملك
أن تراه ، ولكنه « شخصية » لأنك لا بد أن تراه وإن
كرهت مرآه

وأظرف عربداته الكثيرة أنه طرأ له يوماً من الأيام أن

يصطنع الخرس والصمم فلا سمع ولا جواب ، ولج في اصطناعه حتى حاول أن يعنى الأمر على وهو يزعمنى من أصدقائه وخلصائه ولا يدارى عنى ما يداريه عن الضباط والحراس المبعضين ، فلما سأله : أصحيح أنك لا تسمع ولا تتكلم ؟ لمعت عيناه ولم ينبس بحرف ، وتباله بسيماه كما يتباله الصم المغلقون ، الذين لا يسمعون ولا ينطقون ولا يفقهون

ولم تمض دقائق على هذا التمثيل الغبي حتى سمعته فى غرفة العمليات الجراحية يردد بعض العبارات الانجليزية بأعلى صوته ، ويجيب الطبيب على كل سؤال يلقيه عليه ، وإنما الفضل فى شفاء خرسه المصطنع للدواء المرقد الذى خدره به الطبيب فحجب إرادته وأطلق لسانه ! !

وقد أظلم السجن اذا أنا جزمت بأن الأربعة الذين أجملت وصفهم هنا هم كل من فيه من ذوى « الشخصيات » والغرائب الملحوظة ، فغاية ما أجزم به أنهم هم كل من أذكر الآن ممن رأيت ، ولعل لهم أشباها ونظراء لم أرهم والحمد لله ولا أسف على ما فات

ذلك إتنى بليت بمن لقيت من هؤلاء الأربعة بعد بخروجى

من السجن بلية لا يؤسف على فواتها ، فمنهم من كان يلقاني في شوارع العاصمة فلا يدعني دون أن يتقاضاني ضريبة لقائه ، ومنهم من كان يحيني تحية الزملاء الرصفاء كلما بصرتني في ناد أو طريق ، وعرف أولهم « النقيب » طريق داري فحاصرني فيها مراراً لا يبرح الدار اذا حضر حتى أخرج أو أعود ، وأسوأ ما في الأمر أنه لم يكن يحضر إلا وهو سكران طافح معقود اللسان مسترذل الحديث

قلت له آخر يوم وقد دعوت له الشرطي ؛ يا نقيب ! إنك تحتاج الى سجن لتكون ظريفاً وقانا الله من ظرفك وأنت سجين ومن مضايقاتك وأنت طليق . فاذهب ولا تعد ، وإلا أعدتك مع هذا الشرطي الى حيث لا أراك
وذهب ولم يعد حتى الآن ، لا أعاده الله

الجريرة والعقاب

سومرست موام Somerset Maugham كاتب انجليزى
مستفيض الشهرة له مؤهلات كثيرة لمعرفة الطبيعة الانسانية ، لأنه كان
طبيباً ومريضاً فى وقت واحد فهو عليم بما فى الانسان من ضعف
وما يشتمل عليه من اثره وعطف . وهو كاتب قصاص يتبع
« الشخصوس » وينقب عن أسرار الطبائع وبواعث الأخلاق
ودخائل الآداب المصطلح عليها بين الطبقات . وقد اشتغل
« بالجاسوسية » أيام الحرب العظمى فعاشر الساسة والمغامرين
وعرف كيف يستدرج الناس الى افشاء الأسرار والوشاية
بالأعداء والأصدقاء والوقوع فى اشراك المطاردين والرقباء ،
وكيف يزل أصحاب الدعوات والمثل العليا من أجل مطمع
أو مظهر أو شهوة أو غواية ، وكيف يستهين بالحياة البشرية
من ليس له غرض فى اتلافها غير المال والمتاع ، وكيف يقبل
الشرفاء استخدام الاثمة والابخساء عند ماتعن لهم المصلحة العامة
أو المصلحة الخاصة ، وكيف يتوارى الناس وراء دعوى الوطنية
أو الغيرة على الحضارة والحرية لقضاء اللبانات وشفاء الحزازات
والترات ، وقد زاده علماً بطبيعة الانسان انه ساح فى الغرب
والشرق سياحة متفرج وسياحة مستطلع مستخبر ، فاعانته هذه
المؤهلات كلها مع الفطنة الوقادة والبديهة الحاضرة على استكناه

النفوس والنفاذ الى ما وراء الظواهر واختبار دعوى الخير والشر
في الصالحين والطالحين على حد سواء.

هذا الرجل الكيس اللبيب يروى بلسان مدير الشرطة في
بعض البلاد الاسيوية قصة عن « أسرة موقرة » مؤلفة من
أب وأم اشتركا في قتل زوج المرأة السابق ولهما بنت هي بنت
الخليل وان كانت منسوبة إلى الخليل ، وقد حدثت جريمة القتل
لان المرأة حملت وزوجها السابق لا يشك في سفاحها إذا ظهر
عليها الحمل . فدبرا الجريمة قبل أن يفتضح السر ونجحا في إخفائها ،
ثم انقضت الأيام والسنون والأسرة تعيش في سلام لا يعكر
صفوها معكر ولا ينغص عليها العيش تبكيت الضمير ولا
يحترى. أحد على الايما اليها بمسبة أو اهانة
ويقول سامع القصة لمدير الشرطة سائلا
لأظن الزوجين قد نسياما اقترفا ؟

فيجيبه المدير : « انى لن أدهش اذا كانا قد نسياه . فان
الذاكرة الانسانية قصيرة الأمد قصراً يُستغرب ، ولئن سألتنى
رأى من الوجهة الفنية لم أحجم أن أبوح لك بأننى لا أعتقد أن
الندم لاقتراف الجريمة يرين ثقيلًا على ضمير انسان اذا كان على
يقين من كتمان سره »

ويعود سامع القصة فيسأل : « ألا تشعر بشيء من النفرة
أو القلق وأنت جالس الى هؤلاء القوم ؟ أنا لا أرغب في
انتقادك ولكنى أراى مضطرا أن أكشفك باننى لن أحسبهم
مستطيعين أن يكونوا أناساً لطفاء ! »

فيجيبه المدير : « إنك فى هذا لانت على خطأ . إنهم أناس جد
لطفاء ، وهم معدودون هاهنا بين خيار القوم . والسيدة كارتريت
على الخصوص « معتبرة » أنيسة المحضر ، ومن عملى أن أ منع
الجريمة وأن أعتقل المذنب بعد وقوعها ، ولكن خبرتى بالمجرمين
أكبر من أن تدعى أظنهم على الجملة شراً من الآخرين . وقد
تدفع الضرورات رجلا دمثا الى اقتراف جرم محظور فيكشف
ويناله الجزاء ، إلا أنه لا يندر أن يظل بعد ذلك رجلا دمثا كما
كان . نعم ان المجتمع يعاقبه على انتهاك قوانينه وهو حق لا نزاع
فيه ، ولكن أعمال الانسان ليست فى كل حين هى دليل باطنه
الخفى و جوهره الصميم . ولو انك زاولت صناعة الشرطى كما
زاولتها عهداً طويلا لرأيت أن المهم فى أمر الانسان هو كيف
يكون لا كيف يعمل ، وماذا هو لا ماذا صنع ومن دواعى
الغبطة ان الشرطى لا شأن له بأفكارهم وأعماله شأنه كله متصل
بأعمالهم ، ولو كان الامر على غير ذلك لاختلاف جد الاختلاف

ولعاد أصعب مما هو الآن بكثير »

وخلاصة الرأى الذى يذهب اليه الكاتب الخبير ان كثيراً من المعاقبين يشبهون كثيراً من غير المعاقبين ؛ وان بعض الجناة اذا أفلتوا من الجزاء لم يميزهم أحد بوسم خاص أو علامة ظاهرة بين سائر الناس

ولهذا الرأى أنصار كبار بين رجال القانون المؤهلين لدراسة هذه الأمور ، وفي طبيعتهم المحامى الأمريكى النابه « كلارنس درو » (١) صاحب كتاب « الجريمة وأسبابها ومعالجتها » وهو حجة فى هذا الموضوع لسعة علمه ووفرة القضايا الجنائية التى درسها ودافع عن جناتها ، والقضايا الجنائية فى أمريكا مدرسة زاخرة بالمعارف والعظات لا يتاح نظيرها فى الأقطار الأوربية أو الشرقية ، لأن جرائم الحضارة الحديثة فى أمريكا قد بلغت من الاتقان والتنوع مبلغ الفنون المحكمة التى تستنفد جهود المحققين والقضاة والمحامين

وفى وسعنا — بل الواجب علينا — أن نفهم هذا الرأى دون أن يتقاضانا فهمه أن تتبعه ونسترسل معه الى نتائج البعيدة فما لا شك فيه اننا نستطيع أن نؤمن بهذا الرأى ونستطيع أن

تؤمن معه بالحقائق الضرورية لمنع البغى على المجتمع ومنع البغى على الجناة والمسيئين

فهما يقل القائلون فى تساوى بعض المعاقبين وبعض الناجين من العقاب فهناك حقيقتان ليس فيهما خلاف بين الباحثين فى موضوع الجريمة والعقاب : أولا هما ان المجرمين الذين يشبهون سائر الناس يستحقون أن يعاقبوا لانهم مسؤولون عن أعمالهم ، والثانية ان المجرمين الموسومين بالشذوذ الخلقى يحتاجون الى عناية الطب كما يحتاجون الى علاج الشريعة

يرى « كانت » ان عقاب المجرم واجب وحق ولو لم تكن له نتيجة غير جزاء العمل بمثله ومقابلة الاضرار بالاضرار . فان العدل البديهي يأمر بان من يؤلم يتألم ومن يسيء يساء ، والضمير الانسانى يأبى أن يرى شقياً معذباً ومن يشقيه ويعذب به يغدو ويروح آمن السرب مستريح البسال ، ولو لم يتباد فى الايذاء والتعذيب

أما أصحاب الفقه الحديث فلا يحسبون من عمل المجتمع أن يتولى تطبيق العدل البديهي على هذا المنوال ، وانما يطلب المجتمع عقاب المجرم لاصلاحه أو للوقاية من شره ، وكل ما عدا ذلك عبث لا يفيد ولا يليق

فمنذ أصبح عقاب المجرم حقاً للمجتمع ولم يعد حقاً للمعتدى عليه أصبح العقاب لمحض الانتقام والتشفي رذيلة لا تليق ولا تؤدي إلى المصلحة الاجتماعية ، وليس يليق أيضاً أن تعاقب المجرم لردع غيره وإرهاب الناس من مثل مصيره ، فإن هذا معناه كما يقول المنكرون لمذهب الردع والتعويل إنك تعذب زيدا لأصلاح خالد ، وهذا إن صح أن العبرة بمصير المجرمين تردع أحداً ممن تسوقهم ضرورة الطبع أو ضرورة الحوادث إلى الاجرام ، وهو في اعتقاد هؤلاء المنكرين غير صحيح

فاذا كان الغرض من العقاب هو إصلاح المجرم وحماية المجتمع فهل السجن على أحسن نظمه ومقاصده مما يحقق هذه الغاية ويكفل للمجرم الصلاح والمجتمع الحماية؟

الحق أن فكرة « السجن » عتيقة جداً ظهرت في تاريخ الانسان قبل أن تظهر فكرة العقاب للأصلاح والوقاية الاجتماعية بآلاف السنين . فقد كان السجن في بداية الأمر مكاناً لاعتقال الأسرى أو المحكوم عليهم بالموت ، ثم أصبح مكاناً للتخلص من بعض المغضوب عليهم أو الواقفين في طريق ذوى السلطان ، ثم جاء العصر الحديث فحسبنا أن استبقاء السجون وإتخاذها مكاناً للعقاب وتنفيذ القانون على سنة من سلف أمر لا يحصى

عنه ولا ضير فيه ، مع أن قليلا من التدبير يرينا أن « فكرة السجن » قابلة لكثير من المناقشة والمراجعة في العصر الحديث. وإن الأمم قد يأتى عليها يوم تستغنى فيه عن السجن بته وتعذر عنها إلى طريقة أصح منها لتنفيذ القانون ، وربما كان هذا اليوم غير بعيد بالقياس إلى ما غير من تاريخ السجن

أما إذا اتخذنا السجن « مستشفى » لعلاج المرضى المطبوعين على الجريمة فمن الواجب إذن كما يقول « كلاركس دارو » أن نجعل توقيت العلاج في السجن كتوقيت العلاج في المستشفيات. فنحن لا نرسل المريض إلى المستشفى ليقى فيه سنة وإن شفى في ثلاثة أشهر ، أو ليخرج بعد أيام وإن كان شفاؤه يحتاج إلى أعوام. فلا بد إذن من وسيلة لعرفان الوقت الذى يحسن فيه الافراج عن السجين بغير ارتباط سابق بموعد معروف لا يقبل التعجيل والارجاء.

إن تجربتى للجرمين « المطبوعين » الذين يصلون إلى السجن دلتنى على أنهم قلما يكونون إلا واحداً من اثنين: فأما رجل معطل الحس بالآلام الناس وقد يكون معطل الحس بالآلام نفسه وأقرب الناس إليه، وإما رجل مختل الإرادة لا يضبط نزواته في ساعة الهياج أو ساعة الاغراء ، وكلا هذين لا تنفعه السجن الحاضرة على أحسن ما ارتقت إليه من

تنظيم وتعليم ، وإن حاجته إلى العلاج والعناية النفسية لأشد من حاجته إلى العقاب والايذاء ، لأن الإيذاء يوسع الهوة بينه وبين المجتمع الانساني وهو محتاج الى من يقرب المسافة بينه وبين أبناء جنسه ويمحو من نفسه انه عدو يحارب الأعداء ويحاربونه ومن اليوم إلى اليوم الذي تلغى فيه السجون ونهتدى فيه إلى طريقة أصلح منها لحماية المجتمع وتنفيذ القانون يخل إلى أننا لا نملك وسيلة للإصلاح في هذا الصدد خيراً من استخدام الرق العلى والتقدم الصناعى فى مطاردة الجريمة وكشف أسرارها قبل وقوعها وبعد وقوعها إلى زمن طويل ، وقد نصل إلى المستطاع من تحقيق هذا المقصد إذا رفعنا طبقة الشرطة وزودناهم كما نزود المحققين بالأساليب العلمية التى تعين على مطاردة أعداء المجتمع وتعقبهم قبل الاجرام فى دور النية والشروع ، وبعد الاجرام فى دور الهرب والتضليل

والآن تكفى لمسة للرصاصة التى فى داخل المسدس لاثبات علامة يسهل رسمها وتحقيق شخص اللامس الذى استخدم الرصاصة بمضاهاة الرسم على أصابع المتهمين ، ويقال إن بعض العقاقير إذا عولج بها المتهم حجت إرادته وأفضى بدخيلة سره ، ومن هذه العقاقير الكلورال والسكوبولامين (Scopolamine and Chloral) وهى التى يقال ان مكتب التحقيق فى روسيا

إستخدامها لاقتناع المتهمين فى قضايا «الخيانة العظمى» بالاعتراف وإفشاء أسرار المؤامرات المزعومة. وقرأت فى مجلة الفورم Forum وصفا لأساليب صناعية ونفسية يهتدى بها المحقق إلى المتهمين بغير خطأ كثير ، ومنها أداة كهربائية يقبض عليها المتهم ويواجهه المحقق بالأسئلة المريبة وغير المريبة فتسجل الأداة مقدار اضطرابه وإفراز جلده للحرق ولو كان يسيراً ، لأن هذا الإفراز يضعف مقاومته لتيار الكهرباء. فيظهر الأثر على الفور فى موضع التسجيل قال هنرى مورثون روبنسون كاتب المقال :

سألت الاب « سمرز » أن يجرب معى هذه الاداة فعمد الى تجربة خلاصتها أن يطلعنى على عشر ورقات من ورق اللعب وأن أنتقى واحدة منها فى ذهنى ولا أبوح بها لغيرى ، فاخذت ورقة القلبين الاثنين ثم عرضت على الاوراق واحدة بعد واحدة والاب سمرز يسألنى اهذه ورقتك ؟ فلما عرضت على ورقى تعمدت الانكار وقلت لا وأنا أراقب موضع التسجيل على الاداة لارى الأثر الذى يظهر عليه ، وقد حاولت جهدى أن أحتفظ بسكيتى وقلة أكثرائى ولكن الاداة الكهربائية سجلت اضطرابى اليسير جداً مرة بعد مرة حتى اضطرت الى الاعتراف «

وأشار الكاتب الى أسلوب « نفسى » يعتمد على تداعى

الخواطر للكشف عن سرائر المتهمين ، فاذا كانت التهمة سرقة مائة دولار في محفظة سوداء من درج مكتب وضع المحقق خمسين أو ستين كلمة وتلاها واحدة بعد واحدة على المتهم وطلب منه أن يعقب على كل كلمة بغير روية . فاذا تريت المسؤول أكثر من ثانيتين ونصف ثانية وهى المدة الطبيعية للتعلق فهناك وجه للريبة ، واذا تليت عليه بين الكلمات كلمة مائة دولار ثم كلمة درج ثم كلمة مكتب ثم كلمة محفظة ثم كلمة سوداء وأطال الوقوف عند كل منها فهو إذن يعلم شيئا يريد إخفاه ويحفل من ظهوره

هذه أساليب مفيدة لا يحسن إهمالها وترك البحث فيها ، ولكن ينبغي مع التوافر على دراستها أن تذكر : « أولا » أن العقاقير الحاجبة للإرادة قد تمكن المحقق من إملاء الاعتراف على المتهم وإرهابه حتى يخاف الافضاء بسبب الاعتراف ، وأن تذكر « ثانيا » أن العقول تختلف فى قوة المعارضة وسرعة الجواب فيتلعجج المسؤول وهو برى . ويخشى أن يحسب المحقق هذا التلعجج دليلا على اتهامه ، فيضطرب ويزداد اضطرابه كلما ألح عليه هذا الخاطر ولمح من المحقق ما يؤيد وهمه ، وربما أعانت سرعة الخاطر إنسانا آخر على تحضير الجواب المناسب دون أن يظهر عليه من الاضطراب ما يلفت النظر أو يريب

وأن نذكر « ثالثاً » أن إتقان أساليب التحقيق لا بد أن
بله من الطرف الآخر إتقان أساليب الاجرام وتخصص المجرمين
دراسة أساليب الشرطة وأساليب المحققين والاستعداد لها
يحيطها ويتغلب عليها . فتنشأ عصابات المجرمين المعروفين
بالمحترفين « والاختصائيين ، ولا يبقى من المتهمين من تفلح معهم
إلا الأساليب غير الافراد المعروفين « بالهواة » لأنهم
يجهلون الحرفة ولا يتعاونون فيما بينهم على إتقانها
فلا ينبغي أن ننسى أن الأساليب العلمية لن تستأصل الجريمة
من الدنيا ولكنها على كل ذلك لازمة ونافعة ، لأنها وسيلة لا يصح
تجاهلها ولا محيص لنا من استخدام كل وسيلة مستطاعة في هذه
الحرب التي بقيت منذ أوائل عهد الناس بالاجتماع ، وستبقى على
أثرى من أحوالنا المعهودة الى زمن لا تعرف له نهاية

بعض الاصلاح

في انجلترا يقسمون المسجونين لآجال بعيدة الى اقسام :
يمتد القسم الأول الى ثمانية عشر شهراً والثاني الى سنتين ونصف
سنة ، والثالث أو القسم المخصوص ينتقل اليه السجين بعد أربع
سنوات ، ومزية هذا القسم أن يعطى فيه السجين بنساً كل يوم
ويزاد كل سنة خمسي بنس الى أن تكمل الأجرة اليومية بنسين
ولا يزداد عليها بعد ذلك ، ويباح لسجين القسم المخصوص أن
يشترى التبغ والحلوى من أجرته اليومية ، وأن يشتري صحيفة
أسبوعية وما شاء من الكتب المباحة سواء من أجرته أو من
هدايا أصحابه

ومزية القسم الثاني الذي هو دون القسم المخصوص بعض
التحسين في الملابس والفراش والتوسعة في الرياضة والألعاب
وشراء الصحف وما إليها

ويتوقف الكثير من هذه المزايا على احراز درجات السلوك
وهي ثمانى درجات لكل يوم ، ومن استوفى المقدار المطلوب
من هذه الدرجات أسقط عنه ربع المدة واستحق التوصية عليه
بعد خروجه لتدبير عمل له ومورد معيشة

وفي السجون مكاتب تبلغ عدة الكتب في بعضها اثني عشر
الف مجلد ، وتلى على السجناء أخبار العالم مرة كل أسبوع ملخصة

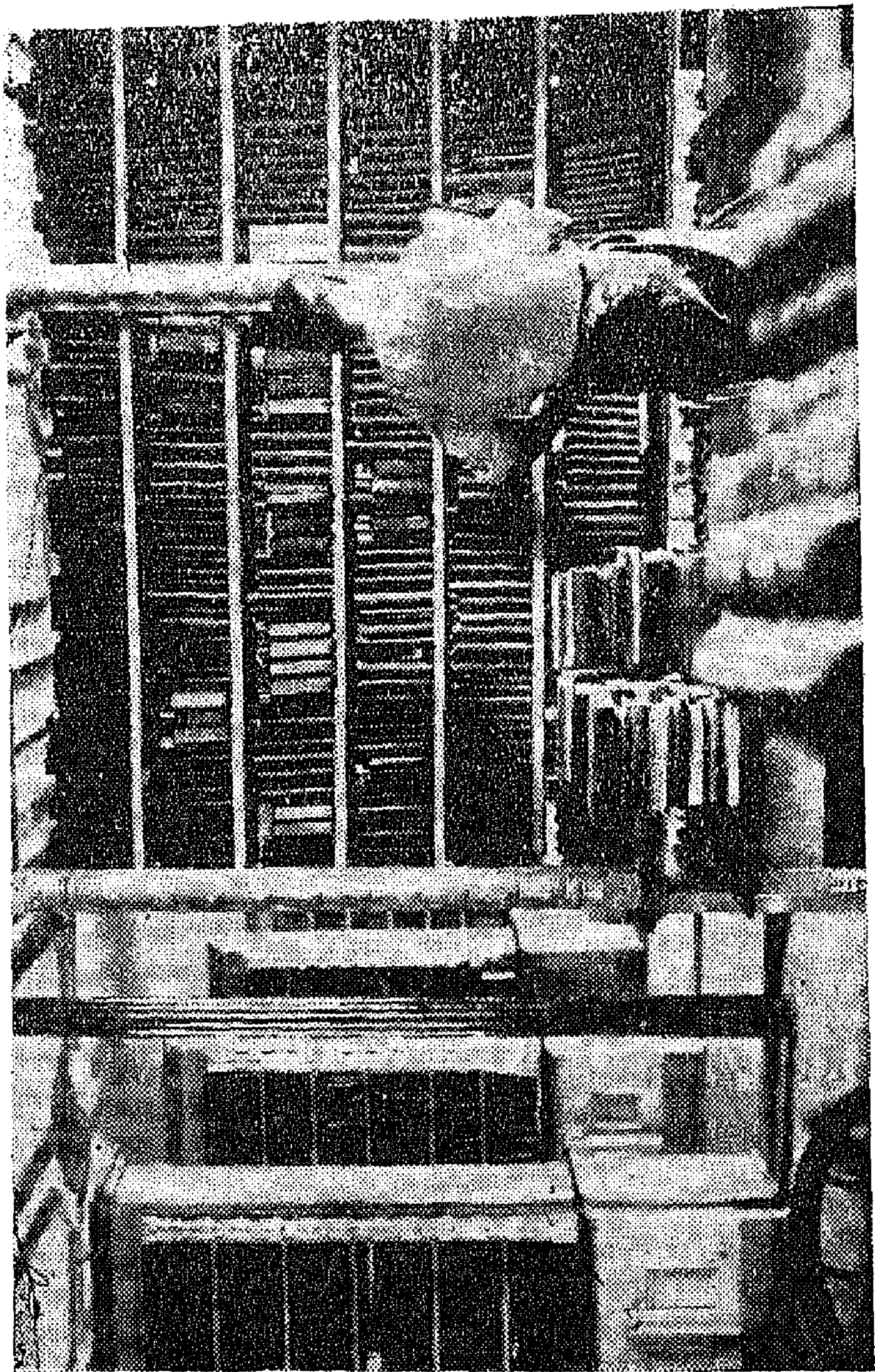
من الصحف السيارة ، ويباح لهم سماع الاذاعة وأغاني «الحاكي»
ولعب الشطرنج وبعض الألعاب الرياضية ، وتلقى عليهم
المحاضرات في موضوعات شتى يختارها مدير السجن أو قسيسه ،
ويسمح لهم بالتمثيل وتنظيم الحفلات في أيام الأعياد ، وطعامهم
على العموم خير في مادته وفي تنويعه من الطعام المسموح به
للسجناء المصريين ، أما العقوبات فهي كما في مصر الجلد والسجن
المنفرد وغذاء الخبز والماء.

ويؤخذ من رواية هانس فلادا (١) الألماني ومن بعض
الرسائل الأوربية أن حالة السجن في أوربا تقرب من هذه الحالة
وتشبهها كل المشابهة أو بعض المشابهة بغير اختلاف في الجوهر ،
إلا روسيا فإن للسجن فيها نظاما مفرطا في التوسعة والترفية
نعتمد في وصفه على كتاب السير جيمس برفس ستوارت
« رحلة طبيب في روسيا الشيوعية » (٢) إذ يقول من كلامه على
مدينة موسكو :

« كل حجرة على بابها مذبح ، والفراش نظيف ومريح ،

(1) Who once eats out of the Tin Bowl by
Hans Fall ada.

(2) A physician's tour In Soviet Russia, by sir
James Purves — Stewart



مكتبة في بعض سجون أمريكا

والنوافذ المشبكة بقضبان الحديد واسعة ، والأبواب تترك مفتوحة إلا ما بين الساعة الواحدة والساعة السادسة بحيث يتيسر للسجناء أن يتزاوروا كما يحبون . وقد مررنا بحجرة مغلقة أغلقها السجين باختياره فلما شعر بنا فتح الباب ودعانا إلى زيارته وأخبرنا أنه حكم عليه بالسجن عشر سنوات لاختلاسـه واحداً وسبعين ألف روبل من مصنع سكر ، وإنه مفرج عنه ذلك اليوم وهو مغتبط متهازل بعد أن قضى في السجن ست سنوات وعشرة أشهر وسبعة وخمسين يوماً وعوفي من قضاء المدة الباقية لاجتهاده وحسن سلوكه ، وقال لنا انه وجد وظيفة كتابية في مصلحة التجارة بسبعمائة روبل مشاهرة وسيبدأ العمل فيها على أثر خروجه

« ويأكل السجناء في حجراتهم ريثما تبني في السجن حجرة واسعة للمائدة العامة ، ويطلب من كل سجين أن يعمل ثمانى ساعات كل يوم تتخللها ساعة للطعام ، وينقسم السجناء إلى قسمين فمن كان منهم أمياً يجمل الكتابة وجب أن يتعلمها على يد زملاء له من الذين كانوا مشغولين بالتدريس خارج السجن ، أما المتعلمون فيلحقون ببعض مصانع السجن ليمارسوا صناعات يدوية معظمها من قвил الغزل والنسج والخياطة والزر كشة ، ولهم على ذلك مرتب يتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين روبل مشاهرة

تودع بأسمائهم في خزانة السجن وتسلم إليهم يوم الافراج ،
ويسمح للسجين أن يتفق حصة من مرتبه في شراء الملابس
والتبغ واللوازم ما عدا المشروبات الروحية فهي محذورة ، وله
بعد قضاء سنة يوم أجازة كل أسبوع يقضيه في بيته ، وتزداد
الاجازة إلى اسبوعين خلال السنوات التالية ، أما إذا كان
السجين فلاحا فله أن يقضى ثلاثة أشهر في قريته أثناء الحصاد ،
وللأصدقاء والأقارب أن يزوروا كل سجين مرة كل عشرة أيام
أثناء السنة الأولى ومرة كل خمسة أيام فيما يلي ذلك من السنين ،
وليس للسجن كسوة خاصة ولا سلاح في أيدي الحراس الداخليين
لأنهم يختارون من بين السجناء وتعقد لهم لجنة لمعاقبة زملائهم
الذين يخالفون النظام ، وإنما يقصر حمل السلاح على الحراس
الخارجيين ، بل قد تشرف اللجنة على تصرفات موظفي السجن
وتقترح التعديل في بعض النظم المرسومة

» وهناك جماعة للتمثيل وأخرى للشطرنج وقسم للتصوير
وقسم للموسيقى وقسم لهندسة الآلات ، ومكتبة فيها ستة آلاف
مجلد تشتمل على التاريخ والصناعة والأدب والروايات ويشرف
عليها كتي رقيق في الثالثة والعشرين يقضى سنتين لا قترافه جريمة
شهوية ينجل من التحدث عنها إلا بانها تقع تحت طائلة المادة

١٨٢ من قانون العقوبات. وقد حولوا كنيسة السجن الى مسرح جميل وأزالوا الحواجز التي كانت تفصل كل سجين عن زميله عند شهود العظة الدينية

« وكل يوم من أيام العمل يحسن السجين أدائه يعفيه من يوم ونصف من أيام العقوبة . وأيام العمل خمسة والسادس للراحة ، ومن يقصر أو يتكاسل يعاقبه زملاؤه بالحرمان من الاجازات والزيارات والمسليات وبعض المزايا الأخرى

« وفي السجن حمامات معتادة وحمامات تركية ساخنة ، وقد شاهدت حجرة الحلاق يغشاها عدة سجناء للتزيين والتجميل ، والأجرة عشرون كوبكا لحلاقة الذقن وثلاثون لقص الشعر وخمسة وأربعون للتدليك وثلاثون للتعطير وستون لحلق الرأس كله . أما قص الشعر كما يقص عادة في السجن فهو بالمجان

« وفي السجن صيدلية ومستشفى يديره طبيب « غير سجين » وممرضة ويشرف على مطبخ المستشفى شيخ طريف ذو عوارض وشوارب طوال يتلهى بلفها على أذنيه ، وعقوبته عشر سنوات لقتله امرأته غيرة عليها ! وطبيب الاسنان يقيم في الحجرة التي كانت من قبل حجرة سوداء وهي الآن مضادة واسعة النوافذ ، ومن هنا وهناك في الابهاء العامة والحجرات عمدان الدعاية

وصحف مصورة يكتبها السجناء » الخ الخ
هذا نظام السجن في موسكو كما وصفه الطبيب الانجليزى
الكبير ، ولم يقل لنا ماهى نتائجه فى الحياة العامة ولكنه روى
على اثر هذا الوصف ان السجناء لا يحاولون الفرار ولا
ينصرفون من السجن فى اجازة أو زيارة إلا عادوا اليه . وهذا
طبيعى لا غرابة فيه بعد ذلك الوصف ، وفى وسعنا أن نتخيله
بغير مشاهدة ولا أخبار

نقول ان هذا النظام مفرط فى التوسعة والترفيه لأننا نعتقد
أن ضرره أعظم من نفعه ، إذ المقصود من الرحمة بالسجين ان
نجنبه الايلام الذى لا ضرورة له ولا منفعة فيه ، وليس المقصود
أن نحول السجن الى متعة يشتهيها بعض الطلقاء ويؤثرونها على
حياة البيت ومتاعب الحرية

ونتيجة هذه التوسعة على السجناء فى روسيا غير واضحة
فى الاحصاءات الرسمية ولا فى الكتابات التى اطلعنا عليها . ولكننا
نستطيع أن نقيسها على ما حدث فى الهند وهى بلاد تشبه روسيا
وتشبه مصر فى طبقة المعيشة اذا صرفنا النظر عن نظام الحكم
وعن الرخاء الذى تمتاز به البلاد المصرية . قال مستر رايت
Wright الذى كان مفتشاً للشرطة فى أقاليم الهند الوسطى :

« أذكر في بعض أيام الشدة والكساد التي ندر فيها الغيث وجام
الفلاحون انه روى من المصلحة أن يشار على القضاة باصدار
أحكام الجلد على صغار السراق بدلا من إرسالهم الى السجون ...
فنجع العلاج وأتى بالنتيجة المطلوبة ، ثم تبين ان جرائم السلب
والسطو التي هي أعنف من السرقة الصغيرة تكفل لمقتريها قضاء
العقوبة في السجون فاخذت هذه الجريمة في الزيادة السريعة ،
وأذكر في الأيام التي هي أروج من ذلك وأرغد ان أناسا تعمدوا
السرقة ليستريحوا في أكناف السجون . . . »

وقد رأيت في سجن مصر من أعترف ألى بمثل ذلك ، وريت
سجيننا آخر يتخفى ولا يجيب نداء الحارس الذي يدعو المطلقين
كل يوم ، لانه يرجو أن ينساه الحارس ويظل في السجن اياما
أخرى بغير عقوبة !

أن « نسبة » السجناء في مصر تلفت النظر بالقياس الى كثير من
الامم في أوربا واسيا وأفريقيا . ويؤخذ من الاحصاء التقريبي
المقارن الذي جمعه لجنة « عصبة الامم » الموكلة بشؤون الجزاء
والمسائل الجنائية ونشرته قبل بضعة أشهر أن عدد السجناء في
مصر يبلغ مائة وستة وأربعين من كل مائة ألف من جملة السكان
في حين أن هذه النسبة تنقص الى نحو تسعة عشر في حكومة

يرلندة الحرة ، وسبعة عشر في فلسطين ، وخمسة وستين في زنجبار
رسة وخمسين في اليابان ، وسبعة وخمسين في استراليا ، وهي
زيد في بعض الامم حتى تبلغ ثلثمائة وثلاثة وثمانين في « سيرة
ليون » ومائتين وخمسة وسبعين في استونيا ، ومائتين واثنين
وثلاثين في حكومة اتحاد افريقية الجنوبية ، وقريبا من هذه
النسبة في بلاد شتى من أمم الحضارة . ولكن النسبة في مصر
تلفت النظر مع هذا لان الامة المصرية لم تشتهر بحب الاجرام
كما اشتهرت بعض الامم التي لم تألف الحضارة والنظام ، فهل
يثار معيشة السجن على معيشة البيت دخل في زيادة عدد
لسجناء ولو بين طبقة الاراذل والخلعاء ؟

يجوز هذا في نطاق محدود وحالات قليلة . ولكن ازدياد النسبة
عندنا مرجعه فيما نظن الى سبب آخر غير اثار معيشة السجن
على معيشة البيت ، وهذا السبب هو تعاقب غصور الظلم والعسف
الاستبداد حتى أصبح ضحية القانون وطريدة الحاكم موضع
لعطف لا موضع الازدراء ، وأصبح دخول السجن لا يغيب
ساحبه كما يعيبه في عهود الحرية والانصاف ، وسيؤول هذا
سبب رويدا رويدا ويعجل به الزوال كلما فهم الجهلاء والمنبوذون
أن الخروج على الشريعة عداوة للمجتمع وليست عداوة للحاكم

الظالم والحكومة الطاغية ، وسبيل ذلك هو التعليم والتربية الخلقية .
واصلاح المعيشة الاجتماعية لا تصعب معيشة السجون وتعتمد
القسوة على السجناء .

ونحن كما أسلفنا في حل من كل تحسين ينقذ السجناء من .
الايلام الذى لا ضرورة له والتغيب الذى لا نفع فيه ، ولا يغلو
الى الحد الذى يغرى بالاجرام والاستخفاف بالعقوبة .

ومن هذا التحسين فرض الكتابة والقراءة على الاميين .
وتدريب الصناع على صناعاتهم حسب الاصول الحديثة وتعليم
من لا يحسنون الصناعات حرفة يتغنون بها الرزق والمعيشة
الشريفة ، وتخصيص درجات لمن يجتهدون في تعلم القراءة .
والكتابة أو في تعلم الصناعات واتقانها تحسب لهم في نقص مدة .
العقوبة وتوفير وسائل الراحة ، وتخول من يحصل عليها عند .
خروجه من السجن أن تضمنه الحكومة في عمل أو وظيفة ولو .
جازفت ببعض المال لتعويض الخسائر ووفاء الضمانات ، فقد
ثبت أن البلاء الذى يعانىه السجين بعد السجن أشد وأنكى من .
بلائه بالاعتقال وضياع الحرية . لأن الناس ينفرون منه .
ويسئون الظن به ولا يأتمنونه على سعى ولا تجارة ، فاذا امنوا
غاقبة السرقة والاختلاس اقدموا على استخدامه واتفَعوا بكفائه .

ولم يحذروا غدرات طبعه ، واستطاع كثير من الموصومين ان يستعيدوا حظهم من حياة العمل النافع والمكانة الاجتماعية ولا ضير من اباحة التدخين والأطعمة المنوعة والملابس الخارجية على أن يكون ذلك كله مزية يكافأ بها المستقيم ويحرمها المقصر والمسيء ، بل هذه المزايا خليقة ان توفر للحراس والرقباء اسباب العقوبة الزاجرة المعقولة وهي حرمان السجين بعض المزايا المشتهاة اذا اساء وخالف النظام ، بدلا من معاقبته بالجلد والمشقة والاعنات .

فقد رأيت كثيراً من السجناء يباهون بالقدرة على احتمال الجلد والمشقة ولم أر سجيناً واحداً يستخف بأكل الخبز القفار ولزوم العزلة والحبس عن الرياضة ، فاذا كثرت المزايا كثرت الرغبة فيها والاجتهاد في تحصيلها وكثرت وسائل العقوبة الأدبية التي تليق بيني الانسان ، وقلت الحاجة الى العقوبات البهيمية التي ترهق البدن ولا تصلح النفس ، بل تعودها الفخر بما هو أدعى الى المهانة .

والسجناء في سجون سيبيريا وجزيرة الشيطان وأمثالها من سجون أمريكا الشمالية والجنوبية ينامون على أسرة خشبية ، تولا ينامون على الأرض كما ينام جميع السجناء المصريين ما عدا

المرضى والمحكوم عليهم فى المحاكم المختلطة . فلماذا يجبر السجين
المصرى على الرقاد فوق « البرش » والأسفلت وهو ولا شك
فراش لا تحتمله بنية الهزيل المهدد بالأمراض ولا تؤمن
غوائله فى الشتاء ؟ ان الرقاد على لوح من الخشب ليس من الترف
فى شيء ، ولكنه أصبح وآمن وأدنى الى الكرامة والتهذيب ...
فما نحن بحاجة الى تعليم الفقراء المصريين فضيلة النوم على التراب ؟
هذه التحسينات كلها ميسورة لمصلحة السجون المصرية ،
ولها أن تظل على يقين أنها تستطيع توفيرها جميعا ثم يبقى
السجن بعد ذلك سجنا يخيف من يخاف ويهذب من يتهذب ؛ بل
يبقى سجنا ومدرسة ومستشفى ، وهى الأماكن الثلاثة التى تعودنا
أن نهرب منها ونحن صغار ونحن كبار !!

فهرس

صفحة	
١٠٣	احمد حمزة
١١٧	التسلية في السجن
١٣١	برج بابل
١٣٩	الطعام ومطالب الجسد
١٥١	الوقت
١٥٩	يوم الافراج
١٧٥	بعض الشخصيات
١٩٣	الجريمة و العقاب
٢٠٧	بعض الاصلاح
	كلمة تقديم
	الى قره ميدان
١	الليلة الاول في السجن
٢	التهريب
٣	القراءة
٤	المنع والترخيص
٦	أخلاق ١
٧	أخلاق ٢
٨	الوعظ
٩	ليلة المستشفى

تصحیحات

صفحة	سطر	خطاً	صواب
٣٦	٥	وقت	وقد
٤٥٠	٤	yaou	you
٦٩٠	١٣	الطبقة	الطبيعة
٧٣	١	تسير	تسير
١٠٩	٤	الصورة	الصور
١٤٦	١٤	يلز	نيلز
٢٠٠	١٧	فحسبنا	فحسبنا
٢٠١	١	التدير	التدبر
٢٠٤	١٣	المعارضة	العارضة
٢٠٥	٤	يحيطها	يحبطها

مطبوعات مكتبة النهضة المصرية

١٥ شارع المدايح

رؤسها مسر محمد وافوه

تليفون ٥١٣٩٤

التمن	اسم المؤلف	اسم الكتاب
مليم	للاكتور حافظ عفيفى باشا	الانجليز فى بلادهم
٤٠٠	» طه حسين بك	أديب
١٠٠	للمرحوم احمد شوقى بك	الشوقيات الجزء الثالث
٨٠	للاستاذ حسين عفيفى المحامى	مناجاة
٥٠	» » » »	وحيد
٥٠	للاستاذ محمد ثابت	جولة فى ربوع أوروبا
٨٠	» » »	» » آسيا
٨٠	» » »	» » افريقيا
٨٠	» » »	» » الشرق الادنى
٨٠	» » »	» » الامريكيتين
١٠٠	» » »	» » استراليا
٧٠	للاستاذ محمد صابر	حياة الفراغة

الثن	اسم المؤلف	اسم الكتاب
٦٠	للدكتور سعيد عبده	الجمعة اليتيمة
١٥٠	للأستاذ ابراهيم رمزي	باب القمر
٢٥٠	» » »	محمد
٢٠٠	للأنسة بسيمة زكي	المطبخ الشرقي
١٠٠	» محمد شوكت التوني	جهاد الأمم في سبيل الدستور
٤٥٠	» يوسف عبدالعزيز حموده	الأمراض التناسلية
٢٥٠	» أحمد خليل عبد الخالق	رعاية الطفل
٥٠	للمرحوم محمد عبد الرحيم ترة	كلية ودمنة بالصور
٣٠٠	محمد عبد الرحمن حافظ	أصول المحاسبة وامساك الدفاتر
٧٠	لويس اسكندر	الانسان والبيئة
١٥٠	اسماعيل مظهر	فلسفة اللذة والالم
٦٠	اسماعيل مظهر	مصر في قيصريلا سكندر المقدوني
	اسماعيل مظهر	الحب الأول قيصرو كيلوباترة
١٥٠	للأستاذ صابر	مصر تحت ظلال الفراعنة
٢٠٠	للأستاذ عباس محمود العقاد	سعد زغلول
٦٠	» »	شعراء مصر
٤٠٠	عبد العزيز مهنا	اقتصاديات النقل

والمكتبة تحوى أكبر مجموعة من احدث المؤلفات والمجلات
والكتب ادبية وعلمية انجليزية وعربية



Bibliotheca Alexandrina



0384576